

علاقات غريبة كلها حقدت على ابنتي تحكم قصر «باتسيون» الذي ورثه دومنيك بكر أشقائه. لكن ابنتي لم يتركها في العائلة لم يحسب حسابها، يحضر مع والدتها كليونيترا ويعيش مع عمه كارها دومنيك الكبير وميل إلى الأخ الأصغر بيرغرين الذي يفتغل حب الصغير له للحصول على ثروة. جنون الارث يحكم علاقات صعبة بين دومنيك وكليونيترا التي تسمى للزواج منه وتقيم علاقة مع بيرغرين عليها تفوز في النهاية، فجأة وبناء على دعوة من كليونيترا تحضر لورا الرقيقة والطاهرة إلى القصر لتربية الطفل الصغير. لكن تفاجأ بالصراع الدائر في الخفاء بين شياطين ثلاثة تتحكم بهم رغباتهم.

السيد الجشع دومنيك يرفض الزواج من كليونيترا، لكنه يسمى لبني الطفل. كليونيترا تنصح لورا بالابتعاد عن دومنيك وعدم تسليم قلبها له. فهل تسبب طهارتها ورقتها غراباً في القصر؟

حزن

لبنان A 100	الأردن 750	البحرين 100	السودان 800
بنوينة 100	الامارات 100	تونس 100	UK E1
الأردن 100	البحرين 100	البحرين 100	France F 10
البحرين 100	قطر 100	البحرين 100	Greece Drs 150
البحرين 100	قطر 100	البحرين 100	Cyprus P 1

www.abir.com

نبع الحسان



الغاي

١ - الشيطان في القطار

بعد القطار أن يفوتها لأنها أخطأت في حساب الوقت الذي تحتاج إليه
تتفرق في سيارة التاكسي من منطقة أورلز كورت إلى محطة بادينغتون
السكة الحديد. تركها الحمال الكثيب مع حقائبها في أحد الممرات،
مست لورا حقائبها وتوجهت نحو القطار تفتش عن مكان فارغ داخل
القطار للدرجة التابعة للدرجة الثانية. كانت تتعثر بالحقائب
بشعرين، وراحت تنتقد نفسها لرعونتها وعدم مهارتها. كلما جابهتها
العملية، حتى السهلة منها، كأخذ سيارة تاكسي أو قطار مثلاً،
تتألم كالأضاعة. خيل إليها أنها تسمع صوت ابنة عمها كليوباترا
هي تقول: «أنت دائماً تائهة وشاردة الذهن، يا لورا!».
التي تراها ليست مخطئة، هي التي بحماستها وثقتها بنفسها، لم يسبق لها

أن قشلت في معالجة مشكلة تعاقبها، صعبة كانت أم سهلة لا تحسب
روحها العملية وحضور ذهنها.

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

لم تكف لورا عن التؤوه بهذه الكلمات بينما كانت تحاول
الركاب المزدحمين. أخيراً، فقدت توازنها وسقطت فوق حافة
الطريق صاحبها شاب متكىء في وقاحة على باب حانة صغيرة
فصرخت باستغراب :

« آه ! يا إلهي ! هذا ما كان يتقصي ».

فلتحنى الشاب لمساعدتها على النهوض، شعره الأسود
المتيقظ والمتوقد ومشرته السمراء التي تذكّر بشمس الشتاء
تدل على أنه قرصان أو مهرّب.

قال في لمجة تسحق القلب :

« اعديني لأنني تركت حقيتي في وسط الطريق ».

أجابته وهي مغتابة من سخافة زلتها :

« كنت أكسر قدمي ».

لس الرجل ركبته فابتعدت عنه في سرعة وقالت :

« كلا، لا أعالي من شيء ».

بدأ وكأنه يسخر أكثر فأكثر من ردأت فعلها فأجلس قائلاً :

« لديك ثلاث علامات غش على أنفك ».

أحسّت لورا أنه بدأ يهزأ بها، فلم تبسم له، لكنها لم تستطع

متعب :

« نعم لدي ثلاث علامات غش على أنفي. واعتذر لي عن

بالقباز وأن شعري مشعث... كما أشعر بعدم قدرتي من

البحث عن مكان فارغ داخل القطار ».

اقترح عليها وهو يشير برأسه إلى الحافلة التابعة للشرطة :

« إذن ما عليك إلا أن تجلسي هنا ».

« لكنني لا أحمل بطاقة درجة أولى ».

« ومذاً إذن ؟ ».

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

« عفواً... بالإذن... عفواً... ».

الغيرة ؟

كان يسخر منها حقاً. فاحمر وجه لورا من جليده، لكن هذه المرة من الغضب.

ولذلك نظرة شاعرية تجاه مهنتي ! هل أنت معتاد على التفتوة بالتقاهات أمام البنات اللواتي لا تعرفهن ؟

قال في وقاحة :

« نعم. وفي معظم الأوقات، أنجح في ذلك. أن وجهك قلدر وشعرك مشعث ! »

تناولت لورا حقيبة يدها وسحبت فيها عن مشطها وأصوات الزينة والمرآة وهو كان يراقبها في مرح ووقاحة. وراح يتأمل وجهها المثلث، الشاحب، وعينها الكبيرتين وشعرها الأسمر الذي يرفض مجازاة الموضة والمنسدل في كسل حول عنقها النحيل. إن لورا عمشوقة الغامة، لكن معطفها الرمادي لا يتناسب مع قامتها ولا حتى مع بشرتها.

قالت فجأة :

« هل انتهيت من مراقبتي ؟ »

بدا الرجل وكأنه فوجئ. بهذا الهجوم المباشر تشته هذه الفتاة الحرة ظاهراً. لكنها أكدت له بلهجة جعلته يضحك، إذ قالت :

« إن كليبواترا تعتقد أنني لا أعرف أن أتدبر أمري، لكن، في رأيي، على المرء أن يقبل ذاته كما هي. »

« تعجبني صراحتك، يا أنسة... ! »

حذرتها العمة فلورا مراراً من اللقاءات المقاجنة والقديرية غير أنها، من جهة ثانية، علمتها اللياقة والتهديب، فأجابته بهدوء :

« اسمي لورا سميت. »

« ومن هي كليبواترا ؟ »

« ابنة عمتي. التي ذاهبة إلى الريف الغربي كي تساعدنا في الاعمال بأبنائها الصغير. »

« هل تسكن ميرينبورث ؟ »

« كلا. إنما ميرينبورث هي المحطة القريبة من القرية التي تعيش فيها. »

« أنت تحضر أبناً تسكن في الريف في منزل يدعى « باتسيون ». »

« كنت لورا صلاح اهتمام في عيني الرجل. وكادت أن تستعلم من اسمك عندما دخل الفتش إلى المقصورة. ولما أراد أن يطبق الفتش على الرجل يسخر منه ويشتمه في عطف كما يتصرف أبناء الألفة. »

« من هذا التصرف وأسرعته إلى دفع الغرامة، رافضة في التصرف الذي كان يملكه إليها في وقاحة. »

« كنت تصر الفتش الغاضب المقصورة راحت لورا تلومه في مرارة. »

« كنت أنت نفسي وهي تقول : »

« كنت أنت الآن أفرحك ! هل شهوى ازعاج الناس ؟ »

« كنت أنت الصيرة فقال : »

« كنت أنت إلى تناول الغذاء معي. »

« كنت أنت صديقان ! »

« كنت أنت حرماً لم يكن في وسعها أن ترفض عرضه. وبينما كانت تحتلها نشوة. »

« كنت أنت وصعهم، هي التي لم تتعود على مثل هذا الجوف. »

« كنت أنت حريصاً على ملء كأسها كلها فرغت. انه. »

« كنت أنت يعرف المكان الذي مستجه إليه لورا، فقال : »

« كنت أنت ميرينبورث. »

« كنت أنت في « باتسيون ». »

« كنت أنت الحقة الأخيرة، إذ خافت أن تدفن حالها في مكان خال. »

« كنت أنت ما أقوله ؟ وبما أن المحل الذي كنت. »

أعجل فيه أعلن إلامه ، فقد اقترحت على كليوباترا أن آلي إلى بانسيو
وتقصية بعض الوقت هناك قبل البحث عن عمل آخر. إن إقامتي هناك
بشأن عطفه .

قال الرجل بعدما قلبت حاجبيه :

« الاهتمام بولد صغير ، تعتبره إجازة ! »

كيف عرف أنه ليس في إمكان أحد أن يرفض طلب كليوباترا ؟ في كل
حال ، إن الاهتمام بتبكيولا ليس مهمة صعبة . قالت :

« أنت لا تفهم . »

« إذن اشرح لي . »

فرحت لورا لكون الرجل الغريب يصغي إليها في انتباه . ولم تجد
التزعاج في التحدث وفهما مبدء الطعام والشراب ، فقالت :

« بعد وفاة والدي ، تربيت عند عمي فلورا . وبما أن والدي كليوباترا
كانا يقطنان الهند ، فقد وضعناهما في مدرسة داخلية في انكلترا لكي
تفسي العطل المدرسية في منزل العمة فلورا . وكنت أكن لها إعجاباً كبيراً
حدود له . كنت ما أزال صغيرة وهي في سن المراهقة . وأجدها
الجمال ، واثقة من نفسها وشديدة التكلف . . . »

« وماذا بعد ؟ »

« تزوجت من رجل يدعى ترويلوس تريفانين . لم أتعرف
لأن . . . »

قاطعها الرجل من جديد وقال في استغراب :

« تريفانين ؟ آل تريفانين الذي يقعون في بانسيون ؟ »

« نعم . هل تعرفهم ؟ »

« سمعت عنهم الكثير . »

فرحت لورا بهذا الخبر وسأله :

« إذن يمكنك أن تخبرني عنهم ! هل ما زالوا يعتبرون أن القراصنة
جزء من أسلافهم ؟ »

هذا السؤال المطروح بجديدية واضحة أدى إلى انقباض الرجل الغريب
ضحك ساخر . فعلا كلس لورا وقال :

« السيد الصغير ، أنا الذي أصغي اليك . »

« بعد تركيزها ، قالت في غير وضوح :

« كنت هناك أشياء كثيرة أقولها . في بانسيون ، كان يعيش
الشيخ الصغير الشرير الذي كان يملك مقلعاً . . . أو ميداناً
في بانسيون . وهذا الأب القوي أزعج ثاني أولاده ويدعي
من فاته اختارها له . وذات يوم . لا أعرف
ترويلوس إلى أستراليا مع ابنة عمي . »

« انصرفت إلى الطعام الذي بدأ يبرد ، فأكمل الرجل
الشيخ الصغير جادلاً قائماً أنه أصبح جداً . فورث كبير أبنائه
الغرائب الغريبة مات في حادث سيارة تاركاً أرملة
ترويلوس وحيدة . »

« ترويلوس وحيدة ؟ »

« نعم ، ترويلوس وحيدة . »

« ترويلوس وحيدة ؟ »

« نعم ، ترويلوس وحيدة . »

« ترويلوس وحيدة ؟ »

« ترويلوس وحيدة ؟ »

« ترويلوس وحيدة ؟ »

« ترويلوس وحيدة ؟ »

« ترويلوس وحيدة ؟ »

« ترويلوس وحيدة ؟ »

« ترويلوس وحيدة ؟ »

« ترويلوس وحيدة ؟ »

« ترويلوس وحيدة ؟ »

يعرفان سوى احسان ترويلها. لكن في الوقت الحالي، هل يعرفان يحترق
ابن كليوباترا ؟

ولا خرج القطار من النفق المظلم، سألت لورا :

« تومنيك، هل هو رجل جيد ؟ »

« السلطان القرصان ؟ سوف تحدّثين الحواب بنفسك متى تعرفت
إليه ! »

« لماذا تدعوه بالسلطان القرصان ؟ عندما كنت له كليوباترا وأعلنت
له ابن أخ يبلغ الخامسة من العمر، اقترح عليها في الحال أن تأتي
بالتسبون، هذا يدل على حسن نيته. »

هذا الرجل الغريب فرحاً بهذا التفكير وفي سرعة المخطط وجهه في نظر
لورا بالوجه الذي كانت تتخيله كلما تصورت في ذهنها أبناء تريفاين
الثلاثة مثلاً :

« هل تريفاين المزيج من الشراب ؟ »

« كلا، شكراً، عندما أشرب، أتحادث كثيراً، لو رثني العمه لفر
لفرحت بي. »

« يجب ألا تقولي لها شيئاً. »

« لقد ماتت. »

« لكن، تريفاين وحده ؟ »

« عندما علمت كليوباترا من لومبراليا، حاولت أن تنقسم شقة واحدة
لكننا فشلنا وحدثنا إلى المسكن الذي كنت أعيش فيه وهو كتابة عن مراد

صغرة حاضرة. وفي مساء كنت أحرم نيكولا عندما تخرج كليوباترا
للمسيرة. انه ولد لطيف وأمل أن يعيش في بالتسبون حياة مريحة ومستقرة.

« وإذا كان ضمه وقع في حبه... »

قامطها الرجل في نفاذ صبر غير متظاهر وقال :

« لا تكني كثيراً على عاطفة آل تريفاين ! »

« بأي حق تسمح لنفسك أن تصدر أحكاماً عليكم ؟ »

ندمت فجأة على ما قلته وأرادت الاعتذار، لكنها حملت حبة
وقالت :

« استمع لي مكاني، وأشكرك على هذا الغذاء، يا سيد... »

« الرجل الغريب لم يظلمها على اسمه. »

« كنت أشتري قد شارلت على الغيب عندما عاداً إلى مكانيها. المسافرين
الذين يمشون في نوم عميق ويشعرون، فنظر إليها الرجل الغريب في

« حسن لي الشر. ولم يعد إلا عندما وصل القطار إلى محطة
في الشارة بحقيقة الخوف التي فرضتها عليها العمه، خافت أن

« منظر الشوارع، لكنها شعرت بارتياح عندما علمت أن الرجل الغريب
يأخذ القطار معه. استقلاً معاً القطار الثاني فسأته :

« سوف أتذهب أيضاً إلى موبينورث ؟ »

« سأأخذ من القطار في المحطة السابقة، وأصبحك ألا تحطفي في
« حسنة القصيدة وألا تسألك الفطار إلى آخر البلاد... ووعا
« من أجل حيث تنظير الشيطان نفسه. أنت الآن في كورنوبل وأحياناً نفع

« حبيبات حرة. »

« يا سيد، أريد أن أعرفك ! »

« أنا في... تستطيع أن تجمع نفسها من الإرتعاف.

« يا سيد، أريد أن أعرفك ! »

« أنا في... يضع مؤهلك للعيش بين القراصنة ! »

« يا سيد، أريد أن أعرفك ! »

« أنا في... أن تكوني وحده معي في هذه المصورة الفارغة ؟ »

« يا سيد، أريد أن أعرفك ! »

« أنا في... أريد أن أعرفك ! »

« أنا في... أريد أن أعرفك ! »

« أنا في... أريد أن أعرفك ! »

« أنا في... أريد أن أعرفك ! »

« أنا في... أريد أن أعرفك ! »

توقفت القطار مرة أخرى، فنهض الرجل القريب وقال :
« سأتركك هنا ، يا أخته سميت ، عليك أن تترجلي في اللحظة التالية ولا
تدعي نفسك تذهبن إلى الجحيم ! »
« مست تقول : »

« وداعاً... وشكراً على العناء... »

قال وهو يجتري كالشبح :

« هذا ليس وداعاً ، سنلتقي مرّات أخرى ! »

يا لهذا الشبح ! الشيطان ! ولأمت لورا خيلها الحصبة وغابت في نوم
عميق . وفي نومها ، أصبحت رحلتها كابوساً يعيد القراصنة الذين كانوا
يتحولون إلى شياطين ، وطفأة حدثت صدمة قوية . ألم واضح نبه لورا أنها
تعد تحلم . فتوقفت القطار فجأة في محطة ميرينبورث ووقعت حقيبتها على
رأسها . كانت لورا دموعها وخوفها وحاولت فتح المقصورة ، من دون
جديوى .

فتح أحد الركاب الباب وحمل الحقيبة وساعدها على النزول من القطار .
وتساءلت لورا ما إذا كانت قد استيقظت تماماً ، ألم تصل إلى الجحيم ؟ لأن
يظهر الشيطان أمامها الآن ؟

قالت لنفسها في صوت مرتفع : « أنت محنونة ! »

قال صوت قريب منها :

« هل تتكلمين وحده ؟ »

انقضت لورا واكتشفت في قريبا رجلاً غريباً يشبه كثيراً الرجل القريب
الذي رافقها في رحلتها ، كما يشبه شيطان أحلامها . فصرخت تقول :

« من أين جئت ؟ »

أجاب الرجل بعدما قطب حاجبيه الأسودين مثل غولي شيطان
الجحيم :

« يا لفده الطريقة العربية في التحدث مع رجل غريب ! من

تصوريتي ؟ من أنا في نظرك ؟ »

« الشيطان ! »

نظمت بهذه الكلمة غضباً عنها .

٢ - في عرين القراصنة .

استدار الرجل تحت ضوء مصباح كهربائي ، فزمت أنه يكبر الرجل
وهو أقل جاذبية منه ، لكن الاثنين يستمتعان بسبات
الزمن الذي وقفا الكدمة في حده الأيسر التي تغطي
الطريق إلى لورا أنه الشيطان . ولما ناداه باسمها
استغرب . ألا يتبع الشيطان بواجب وقدره تفوق الطبيعة ؟

استدار الرجل هكذا ، لمن اصططبك إلى الجحيم ، إنما سأعطيك إلى

أنت بعد من كل ترينين ؟

« أليس أنا عوضك ترينين . »

... والشیطان ...

... كلفت الرجل لسانها :

... في حالة جيدة ؟

... لم تكن به لأنها شعرت أن قدميها مستحوران

... كنت في حالة جيدة ... وقعت حقيتي على رأسي . ولا شك

... كنت مقلعة ...

... أصبحت الآن أكثر . لقد زعزععتك الصلابة وهزتك .

... كنت نائمة وأحلم . وكلفت الرجل الذي كان جالساً قبالي ،

... الشيطان بعينه . يا إلهي ، كم تشبهه ... أعني كم تشبه الرجل لا

... الشيطان .

... قال دومنيك تريفلين في تعبير ساحر :

... لا شك أنك التقيت بشقيقي ، إذ كان من المفروض أن يصل في

... العصر نفسه . اعتقد أنه حبط في إحدى المحطات .

... وفهمت لورا سب التشابه بين الرجلين . فشعرت فجأة بالترعاج

... الحزين . كيف خيل إليها أن الرجل الذي سيستضيفها في منزله هو

... الشيطان !

... نعم ، إنه ... أعني أحبك ، حبط في اللحظة السابقة .

... واكتشفت في هوذا أنه هزأ منها طيلة الرحلة .

... لا شك أن ليس برين موعداً هناك . هل يعرف من تكوينين ؟

... آه ، نعم ! لقد كنت حقاً وأخبرته سيئة حينئذ . خطفتني من الممر

... عندما سقطت على حقيتي . ثم أصر أن أبقي معه في المقصورة لأنني لم

... أستطيع العثور على مقعد فارغ ، وبدلاً تحدثت . ثم دعاني إلى الغداء

... معه .

... قال دومنيك تريفلين ساخراً :

... يبدو أن حظك سيء مع الحجاب ! ما رأيك بأخري ؟

... يجدها جذاباً .

... لم تكن لورا في مزاج هادي ، لئلا تترك هذا النوع من الاست

... من أن تريفلين إلا التسلية بوجودها . فأنظرت رجليها في الرجل .

... حيث تأمل أعضاء المرقا الصغير . ثم قالت :

... « أشعر بالغربة » .

... لما لها رجليها وهو يسير في قريبا :

... « أنت الآن في كورتويل » .

... « تشوق الغائبة ، يحمل حقيتها بدون أية صعوبة .

... « أنت تسرع في مشيتها كي تبعه فقال :

... « هو أسرع في المشي بالنسبة إليك ؟ »

... « أعتقد أن أحبك على حق . أنت مهيأة للعيش بين القراصنة والأسايد

... الحشرون .

... « لا شك أن أخي رسم لك لوحة غريبة عن بانسيون .

... « خرجت لورا قاتلة في خجل :

... « القراصنة من اختراعي . لا يمكنني أن أكف عن التفكير بأن أسلاف

... « بعضهم هم من القراصنة القدامى .

... « الأسد الحشرون ؟ »

... « هذا التعبير صدر عن أخيك . ولست أفهم جيداً ماذا يعني بذلك .

... « حباب دومنيك تريفلان في مראה غير منتظرة :

... « يا إلهي ، يا آسة سميت . يجب أن تعرفي أن الامتيازات التي

... « أنت بها الآن الأكبر تأثيراً دائماً الغيرة .

... « أصبح حقية لورا في صندوق ميارته ولما جلس قريبا اعتلقت قاتلة :

... « الظاهر أنني أبذل لك فتاة حذاء بكل ما للكلمة من معنى . اليس

... « هكذا يا سيد تريفلين ؟ »

... « أنت في إمعان وفي عينيه تسامح مرح كما عند أخيه . فوجدته مقيماً

... « تريفلان في إمعان وفي عينيه تسامح مرح كما عند أخيه . فوجدته مقيماً

... « تريفلان في إمعان وفي عينيه تسامح مرح كما عند أخيه . فوجدته مقيماً

... « تريفلان في إمعان وفي عينيه تسامح مرح كما عند أخيه . فوجدته مقيماً

... « تريفلان في إمعان وفي عينيه تسامح مرح كما عند أخيه . فوجدته مقيماً

حيًا لكنت اعجبت به لأنه كان فخورًا بأسلافه العظماء، فقط من أجل
 يدهش الناس. »
 قالت لورا متأسفة لسماع ضحكة دومنيك العالية :
 « ربما هذا صحيح. »
 « أسلافنا لم يكونوا من القراصنة، لكنهم لا شك كانوا لصوفاً
 متسكمين وقطاع طرق. كمعظم العائلات المتحدرة من هذه المنطقة. »
 « أسلافنا ولا شك أشخاصاً مجازفين يتصدون للقوانين. هل يروقك
 يكون أسلافنا قطاع طرق، يا آتسة سميت ؟ »
 « تعبت لورا من اعتبارها تافهة فأجابته بعدائية :
 « في الوقت الحاضر لا أريد إلا احشاء فتجان شاي ساحن ! »
 لكنها تراجعت عن عدائيتها وأضافت في لهجة مهذبة :
 « إذا كان ذلك لا يزعجك. »
 ابتسم دومنيك تريفان وساعدها على خلع معطفها. ولست يداها على
 للحظة فشعرت لورا بها، إذ كانتا ساختين وقويتين.
 « تعالي إلى الدار. سترينه أقل جمالاً وأكثر راحة. ان ابنة خالك
 انتظارك. »
 تبعته لورا في الارتياح. لا شك أن كليوباترا ستفرح بها لا محالة، بل
 أجل أن تعهد إليها بتيكولا. لكن هذا غير مهم، إذ أنها تفضل رؤية
 قريب على رفقة آل تريفان المضطربة.
 ان قاعة الاستقبال تدهش حقاً بالمقارنة مع البهو الذي يشبه المتاحف
 هنا الأثاث عادي واللوحات خالية من القرنية. غير أن لورا أعجبت
 الحميم وحرارة الجو الصادرة عن اشتعال الحطب في المدفأة التي تشبه
 من حجر الصوان.
 قالت كليوباترا في كسل وهي تتأهب :
 « مرحباً... »
 تبدو وكأنها في منزلها، ممددة على أريكة قرب النار. والذي يراها قرب
 طاولة صغيرة مليئة بالزجاجات والكؤوس، يقول إنها تعيش هنا دائماً
 والحقيقة أنه لم يمض أسبوع على وجودها في يانسيون...

[illegible]

فجاءت قالت كليوباترا في استغراب :

« لورا، حبيبي، إني أراهن أنك في رحلة إلى القمر ! بمذا محظوظ ؟ »
قال دومنيك وهو يتأمل لورا في اهتمام :

« يا لسوء حظها، فقد سقطت حقيبتها على رأسها، هل تشعر
بحسن الآن، يا أنسة سميت ؟ وبالنسبة، لماذا أخفيت عني، يا كليوباترا
انكيا قريشان ؟ »

« أخفيت عليك ! لكني كنت اعتقد أنك على علم بذلك ! ألم أخبر
ترويلوس أن لذي ابنة خال تدعى لورا سميت ؟ »

« عندما توفي والدي، بعثت إليه بعدد من الرسائل لا يستهان به
« صحيح ؟ لم يقل لي ذلك، أوريما لم تحصله. كنا نتنقل باستمرار
سكان إلى آخر داخل أومسترايا من دون أن نترك عنواننا... »

« قلت تفهم قصدي ؟ »
كان دومنيك على اطلاع على تمييز أخيه المسرف، فرقة بايتسامة صر

وفي الحال غيّرت كليوباترا الموضوع إذ سأله :

« أين بيرغرين ؟ ربما أخذ القطار ذاته الذي جاءت به لورا،
أكد لها دومنيك في جفاف :

« بالفعل، لقد سافرا معاً، ولم يز يري أن من واجبه أن يقدم
للأنسة سميت. إنه في كل تأكيد نزل في محطة ما يرى إحدى صديقتي

« إني أراهن أن لورا فعلت العكس وأخبرته سيرة حياتها. إن
فلورا على حق ويجب أن تعمل بتصالحها. وما أنني أعرف بيرري
فاتني أقسم أنه جديك إليه لقضاء الوقت وأنت وقعت في حيائه

« كانت لورا تنظر إلى ابنة عمها في اندهاش متسائلة ما إذا كنت
كليوباترا هي بالذات متأثرة بحجر صغير آل توبلين وجاذيته.

تدخل دومنيك في الحديث وقال :

« بما أن الأنسة سميت انتهت من احتساء الشاي، فبإمكانك إذا لم
أن ترافقيها في جولة في المنزل وتدلها إلى غرفتها. »

قالت كليوباترا فرحة من اختياره لها لتلعب دور ربة البيت :

« أرجوك أن تدعوها باسمها : لورا ! »

« كانت الفتاة تستعدان للخروج من غرفة الاستقبال، فتح الباب
« من الكلاب يتبعها شيخ امرأة غاضبة تحمل مقلاة وتصرخ في
« يا لورا، أنت التي كنت تسميها لورا، يا دومنيك ؟ »

« يا لورا، أنت التي كنت تسميها لورا، يا دومنيك ؟ »

« يا لورا، أنت التي كنت تسميها لورا، يا دومنيك ؟ »

« يا لورا، أنت التي كنت تسميها لورا، يا دومنيك ؟ »

« يا لورا، أنت التي كنت تسميها لورا، يا دومنيك ؟ »

« يا لورا، أنت التي كنت تسميها لورا، يا دومنيك ؟ »

« يا لورا، أنت التي كنت تسميها لورا، يا دومنيك ؟ »

« يا لورا، أنت التي كنت تسميها لورا، يا دومنيك ؟ »

« يا لورا، أنت التي كنت تسميها لورا، يا دومنيك ؟ »

« يا لورا، أنت التي كنت تسميها لورا، يا دومنيك ؟ »

« يا لورا، أنت التي كنت تسميها لورا، يا دومنيك ؟ »

« يا لورا، أنت التي كنت تسميها لورا، يا دومنيك ؟ »

« يا لورا، أنت التي كنت تسميها لورا، يا دومنيك ؟ »

« يا لورا، أنت التي كنت تسميها لورا، يا دومنيك ؟ »

« يا لورا، أنت التي كنت تسميها لورا، يا دومنيك ؟ »

لورا مستغربة بعدما انفلق الباب :

« يا لهذه المرأة الغريبة ! »

جلست كليوباترا على طرف السرير وقالت :

« يقال إنها كانت مغنية في أحد النوادي الليلية قبل أن تصبح عشيقة العجوز زكاري . وحسب أقوال بيرى ، كانت تأمل في أن يتزوجها بعد وفاة زوجها ، لكنه لم يبال . وبقيت تعمل كخادمة وبنتم بتربية الأولاد . والآه هي جزء من العائلة . »

« يا للمرأة المسكينة ! »

هذه القصة أحزنت لورا ، فسالت :

« كم يوجد من الخدم هنا ؟ »

« ان ميريام تتقاسم العمل مع أموس ، إنما اثنان غريبان . هل رأيت الكلاب مساء أمس ؟ أموس يطلقها من أجل اغاظة ميريام . انه رجل عجوز ، فظ ومجنون . لا يكف عن التثؤن باللعنات للجميع . ونيكولا ؟ يخافه . كم هم غريباء الأولاد ! غير أنه قرر أن يتصرف بكرامية مع دومنيك . وبيرى لا يفعل شيئاً لتسوية الأوضاع . »

« لماذا ؟ »

« اعتقد أنه يريد أن يضايق أخاه الكبير ببعض الاهانات الصغيرة . نيكولا يحب والده حباً كبيراً وبما أن بيرى يشبه ترويلوس فإنه لا يجد صعوبة من أن يبال ما يريد منه . »

« لا أرى أي ضرر في ذلك . »

« لا تنسى أنه من الضروري استمالة حبة وعطف الأخ الكبير دومنيك . فهو الذي يمسك بزمام الأمور . وأني أنكل عليك في التأثير على نيكولا . لندن كان يطيعك أكثر مني . حاولي أن تدعيه بحب دومنيك . كما في استطاعتك أن تلاففي سيد المكان إذا شعرت بالشجاعة الكافية ! »

قالت لورا وهي تنفجر ضاحكة :

« هذه قضية أخرى . »

« هل حدث بينكما شيء عندما اصطحبك من المحطة ؟ »

« لا أبداً . وماذا اخترعتم لي الآن ؟ »

« تحت كليوباترا تتأمل ابنة خالها ذات العينين الواسعتين ،

« تحت كليوباترا تتأمل ابنة خالها ذات العينين الواسعتين ،

« تحت كليوباترا تتأمل ابنة خالها ذات العينين الواسعتين ،

« تحت كليوباترا تتأمل ابنة خالها ذات العينين الواسعتين ،

« تحت كليوباترا تتأمل ابنة خالها ذات العينين الواسعتين ،

« تحت كليوباترا تتأمل ابنة خالها ذات العينين الواسعتين ،

« تحت كليوباترا تتأمل ابنة خالها ذات العينين الواسعتين ،

« تحت كليوباترا تتأمل ابنة خالها ذات العينين الواسعتين ،

« تحت كليوباترا تتأمل ابنة خالها ذات العينين الواسعتين ،

« تحت كليوباترا تتأمل ابنة خالها ذات العينين الواسعتين ،

« تحت كليوباترا تتأمل ابنة خالها ذات العينين الواسعتين ،

« تحت كليوباترا تتأمل ابنة خالها ذات العينين الواسعتين ،

« تحت كليوباترا تتأمل ابنة خالها ذات العينين الواسعتين ،

« تحت كليوباترا تتأمل ابنة خالها ذات العينين الواسعتين ،

« تحت كليوباترا تتأمل ابنة خالها ذات العينين الواسعتين ،

« تحت كليوباترا تتأمل ابنة خالها ذات العينين الواسعتين ،

« تحت كليوباترا تتأمل ابنة خالها ذات العينين الواسعتين ،

« تحت كليوباترا تتأمل ابنة خالها ذات العينين الواسعتين ،

« تحت كليوباترا تتأمل ابنة خالها ذات العينين الواسعتين ،

« تحت كليوباترا تتأمل ابنة خالها ذات العينين الواسعتين ،

« تحت كليوباترا تتأمل ابنة خالها ذات العينين الواسعتين ،

« تحت كليوباترا تتأمل ابنة خالها ذات العينين الواسعتين ،

« تحت كليوباترا تتأمل ابنة خالها ذات العينين الواسعتين ،

« تحت كليوباترا تتأمل ابنة خالها ذات العينين الواسعتين ،

« تحت كليوباترا تتأمل ابنة خالها ذات العينين الواسعتين ،

« تحت كليوباترا تتأمل ابنة خالها ذات العينين الواسعتين ،

« تحت كليوباترا تتأمل ابنة خالها ذات العينين الواسعتين ،

« تحت كليوباترا تتأمل ابنة خالها ذات العينين الواسعتين ،

« تحت كليوباترا تتأمل ابنة خالها ذات العينين الواسعتين ،

ارتاحت كليوباترا للخدمات التي ستقدمها لورا مهما كان من
الحلاف بينها وتوجهت نحو الباب . ومن العتبة أرسلت إليها قلة صر
وقالت :

« سأعهد به إليك بكل طيبة خاطر . في كل حال ، فهو لا يكتب
التحدث عن عزيزة مومي . »

هنا

٣ - الربيع يمر من هنا !

في هذا اليوم ما زالت لورا ترى بانسيون غريبة كما كانت تراها
في السابق . هذا المنزل صباح هذا الأحد فارغاً . كان نيكولا
في الحديقة . كانت في الماضي غرفة الأولاد . في إحدى زوايا الغرفة
كانت هناك صورة لآلة على الماضي . وإذا كان من السهل أمام لورا
أن تتذكر ما كان ما يزال صغيراً يلعب في هذه الغرفة ، غير
أنها لم تكن أن تتصور دومنيك متصرفاً إلى اللهو . كانت تفضل أن
تذكر ما كان نيكولا كان يريد أن يربى بقية المنزل .

الآن هو في ساحة الأطفال :

الآن هو في ساحة الأطفال . . . وعليه غرفة الطعام . . . المكتب . . .
الآن هو في ساحة الأطفال . . . يوجد في منازل الناس الاعتياديين غرفة وجدة .

وياسيون لا تشبه أي منزل آخر. وهذا اليهود أثريته، يا مومو! إلى ذلك
أنه أزواج من أي مكان آخر؟

سألت لورا مستغربة:

« هل تحب هذا المنزل؟ »

« نعم. أحبه. قالت لي أمي أنني هنا في منزلي. »

لا شك أن كليوباترا على حق. فنيكولا هو من آل تريفالين وعليه أن

انتماء إلى هذا المكان. إنه ما يزال في الخامسة من عمره وبالتالي لا يستطيع

أن يفهم حقيقة الوضع، لكنه يفكر في اكتشاف الكنوز الجديدة.

قال للورا وهو يشير إلى قتال برونزي: « انظري، يا مومو. هل تعرف

ما هو هذا التمثال البرونزي؟ »

أبدت لورا اهتمامها وسألت:

« كلا. ماذا يكون؟ »

« إنه حصان القارن الخاص بآل تريفالين. والقارن هو حيوان أسطوري

في شكل حصان كان الأفدمون يشرطون أنه له قرناً وسط الجبين. وهذا

هذه الزاوية، قارن آخر، يا لورا. انظري! »

وبطرف أصبعها لمست لورا حصان القارن المنحوت من حجارة الصخر

المبينة منها الدفأة. انفتح الباب فجأة ودخل بيرغرين تريفالين وقال:

« هل تتألمين شعاع العائلة، يا آنسة سميت؟ لقد قلت لك أننا سنشترى

من جديد! »

التفت لورا في سرعة واكتشفت ابتسامة ساخرة تعرفها جيداً. فأجابته

في طعنة باردة:

« أي مسروقة لرؤيتك من جديد، يا سيد تريفالين. لو أنك غولك

وذكرت اسمك وهي تلك في القطار لما كنت أزعجك وأخبرتك غصص

تعرفها جيداً. »

« لا تغضبي، يا آنسة سميت. فانا لم أضجر أبداً، أرجوك

تصدقيني. بالعكس، لم يسبق أن سمعت مثل هذه الوقائع. »

لم يتسن للورا أن تتسلم ما إذا كانت هذه الأسرار التي باحت بها يمكن

أن تؤدي كليوباترا، لأن نيكولا أسرع نحو عمه وأمسك بطرف غصص

صوت حلقه وقال:

« من القارن يشبه الحصان الكبير، يا عمي بيرغرين؟ »

« هذا يمكن للآنسة سميت أن تكتشفه عندما تكون في مزاج عكر. »

« سأنتظر مومو. »

« مومو، هل أخبرك نيكولا عن أسطورة القارن التابع

لصوت؟ »

« سمع لورا أن تكبت ضحكها، فطلعت من بيرغرين أن يتألمها

« وهنا دخل دومينيك إلى البهو تبعه كليوباترا. وفي الحال راح

صوت صراخ من حالة لورا الصحية فأجابته:

« يا آنسة سميت. وليس في رأسي سوى أثر تودم بسيط ليذكرني بأن

صوت تكلمي أن تكون خطرة أحياناً. »

« يا سميت. »

« يا سميت. »

« يا سميت. »

« يا سميت. »

« يا سميت. »

« يا سميت. »

« يا سميت. »

« يا سميت. »

« يا سميت. »

« يا سميت. »

« يا سميت. »

« يا سميت. »

« يا سميت. »

« يا سميت. »

« يا سميت. »

« يا سميت. »

« يا سميت. »

« يا سميت. »

قال بيرغرين مسامحاً :

« ربما تريدان أن تملك عائلة تزيقان شعاع النبالة ؟ »
شم الصبي هذا الحديث وعاد فجأة ليقف بين عميه.
ولاحظت لورا أنه يشبهها كثيراً.

فسأل الولد :

« هل تلعب لعبة القارن ؟ »

ضحك بيرغرين عالياً وأمره بالجلوس ، فقال دومنيك :

« بما أن العم يبري يرفض ، فأنا سألعب معك لعبة القارن »

وبدل أن يفرح ابتعد الولد عنه في خوف ، فحمله بيرغرين على كتفه

ثم وضعه على كتفيه . فقالت كليوباترا في ابتسامة اعتذار موجحة
دومنيك :

« يا له من شيطان صغير ! »

فوجئت لورا إذ رأت في وجه دومنيك علامات الحزن والكسر

فقال في صوت جاف :

« لا شك أن الغداء أصبح جاهزاً . »

فقالت لورا :

« هل سيتناول نيكولا الغداء معنا . أم أنه سيتناول طعامه مع

المطبخ ؟ »

قال دومنيك :

« هذا غير وارد . أنت مدعوئنا ، وستناولين الطعام معنا في

الطعام . وأنا شخصياً ، لا يزعجني وجود نيكولا معنا ، لكن قالت

على أن يتناول طعامه برفقة مريته . »

قالت كليوباترا :

« إذن ، ستلعب لورا مؤقتاً دور المربية . أنت لا تجدين مانعاً من

تناولي الطعام مع نيكولا ، أليس كذلك ، يا حبيبي ؟ »

قال دومنيك في لهجة لازعة معلناً مرة أخرى أنه سيد المكان

« لكن أنا ، أجد مانعاً في ذلك . سيظل نيكولا يتناول طعامه مع

كما حصل ذلك حتى الآن . هيا يا نيكولا ، اذهب إلى المطبخ »

في البيت .

في البيت .

في البيت .

في البيت .

في البيت .

في البيت .

في البيت .

في البيت .

في البيت .

في البيت .

في البيت .

في البيت .

في البيت .

في البيت .

في البيت .

في البيت .

في البيت .

في البيت .

في البيت .

في البيت .

في البيت .

في البيت .

في البيت .

في البيت .

في البيت .

في البيت .

في البيت .

في البيت .

في البيت .

في البيت .

« لعليك أفكار غريبة، يا لورا. »

« أين دومينيك ؟ »

« في مكتبه، على ما اعتقد. لماذا تريدان رؤيته ؟ »

« لأطلب منه أن يسمح لي بالخروج. »

مذت كليوباترا يدعها مرة ثانية إلى عتبة الشوكتولا التي كانت تضعها على ركبتيها وقالت صارخة :

« ما بالك، يا لورا، لست مضطرة لاستدائه. لم تعودي فتاة صغيرة اتسى العادات التي وشحتها فيك الممة فلورا. إن آل تريفان مختلفون، وإن بطول الوقت حتى تلاحظي ذلك. سيقبض دومينيك إذا أزعجه أحد خلال وقت القيلة من أجل سب ثائه. لا أحد يتم بأحد هنا. »

سمعت الفتاتان صوتاً يقول في مرج :

« يا لهذا الرأي السلي ! »

كان دومينيك واقفاً على عتبة الباب. أضاف :

« أنت تشميني، يا كليوباترا. لم أكن نائماً ! لست عجوزاً بعد ! »

قالت كليوباترا في إيشامة مغرية :

« بالطبع، يا دومينيك. إن عمرك ٣٥ سنة. إنه عمر جميل للرجال. »

استراحت في جلستها متعددة على الوسائد وثابتت :

« ما زال في إمكانك أن تتزوج إذا رغبت بذلك، بيننا المرأة في سني لا

تعتبر شابة. »

شعرت لورا بانزعاج. هل تتكلم كليوباترا في جد ؟

اكتفى دومينيك بتقليب حاجبيه وقال في لهجة تحد :

« النساء يحتفظن بأعمارهن ولا يبحن بها لأحد. »

قالت كليوباترا في قهر واحتذار :

« عمري ٢٥ سنة... ومأصبح في السادسة والعشرين قريباً. لكن

حسب عيوني بالرجال ومعرفتي بالحياة أبدو أكبر سنّاً بكثير. »

ابتسم دومينيك وظهرت الكدمة في زاوية خده. فلمسها بيده وإعياها

العيب وقال :

« يا ليلي ! أنت تتلفطين بكلام بلدي. »

« لكن كليوباترا تنتظر ردة الفعل هذه من دومينيك. وفي استياء قالت :

« يا دومينيك المسكين، تنفك روح الشكّة... ولا تعرف كيف

تصرف مع الناس. »

أجلسها في حجة عليل واتذّر :

« عزيزي، نحن نعيش هنا بين الرجال ولا نختلف كثيراً عن

الرجال. إن آل تريفان لا يضيّعون وقتهم في إثارة النساء بكلمات

تصعب. »

حارلت كليوباترا الاحتجاج قائلة :

« بصبر، أليست امرأة ؟ »

أجلسها بحفاة :

« سرعان ما هي جزء من العائلة. وأنت، يا لورا، أما كنت توفين

مخرج ؟ »

أعطت لورا لدى مناعها هذا السؤال المفاجئ... فقد سمعت هذا

حديث الغريب معتيرة أنها منسية.

« حس، أي... أنت... ألا ألتحق في أن أقوم بجولة خارج المنزل ؟ »

« استصاين بخية الأمل. إن بانسيون ليست قصراً رقيقاً ولا تقع في

أحد حديقة جميلة. تعالي فساكون دليلك. »

كانت لورا تود أن تكتشف المكان وحدها. غمزت كليوباترا بلياقة،

فأجابت عليها بنظرة لهاضية. فحاة فهمت لورا أنه كان يجب عليها أن

تخرج من الغرفة من دون أن يلاحظها أحد كي تفي كليوباترا وحدها مع

الحدث.

كانت لورا تسير قلّة ذوقها وهي تمشي مع الرجل الغامض الذي أصرّ

على اصطحاب الكلاب معه. لم تتعدّ لورا في المفطلات النافذة التي كانت

تسبح إلى الريف أن ترى مشهد الجبل العاري والتلال الصخرية المقطعة

في ضوء لونها التوارس.

كان منزل آل تريفان حماماً بما يشبه العشب الذي أصبح أبيض بتأثير

الحس الحر. والطرفات الضيقة المبينة من الحصى لا تدل على أن أحداً

حتى سده الحديقة. فتيات الزهور واضح والجدار الذي يحيط بالحديقة

سبي من الغريميد . قالت لورا إنه المظهر يتغير حقاً لو حلت مكان هذا الحائط سلسلة من الأشجار . وعندما أطلعت دومنيك تريفانين على رأيها ، سخر من جهلها وقال :

« انظري إلى هذه الأشجار الثلاث المنحنية التي تربتها هناك ، الريح المستمرة تلويها وحتى في فصل الصيف ، لذلك تربتها عارية من الأوراق . حاولت أهي زرع مختلف الأزهار ، عدة مرّات كلها بامت بالفشل ، لأن باتسون ليست محبة من الرياح والعواصف . غير أن الأمر يختلف في الربيع . انظري فالربيع على الأبواب . وسأريك الغرائب والروائع النباتية الشائكة والأزهار النسيجية والحشائر ، كلها تتبدّل المظهر كلياً . »
وحسب طريقة كلامه فطنت لورا أنه قدحور جداً بأرضه وسكنه ولا يبدّلها بالأراضي الخصبة والخضراء معها كلّفه الأمر .

أضاف قائلاً :

« ومن الآن إلى جبل أو جبلين ، لا شك أن باتسون ستطور نحو الأفضل . أما في الوقت الحاضر ، فإنا نعيش هنا ، نعطد المصافير والسمك ونسحر ، وفي المساء نذهب إلى الحانات والنوادي الليلية . إذا جدد يوم وأصبح لعائلة تريفانين أولاد ، وخاصة بنات ، فإن الوضع سيتغير . »
استغربت لورا كل هذه التفاصيل . هل ينوي دومنيك تريفانين ، هذا السيد الغامض ، أن يتزوج . لم يعود على الاستمرار في حديثه على التوالى نفسه ليوضح أفكاره ، إذ استرّعه غموضه فجأة وأصبح من جديد الملاك الذي يراقب زائرتيه في جولة عادية حول ممتلكاته .

كانا يسيران على طول الساحل في اتجاه معاكس للريح التي كانت تعصف في قوة . والكلاب تركض بعيداً جداً أمامهما . فتأداهما دومنيك ولورا كانت ترفقه مرّة بعد مرّة بنظرات سريعة جانبية . التارحة مساه كل ترفق عذلة العمل أما اليوم فكان في بدلة بحرية . وتحلّقت لورا في ربطة حول عينيّه . كأنه صورة طبق الأصل للقرصان الذي ما يزال يهدد عيقلها .

« هل تحاولين تشريحي أو أنني أعشي أسرع منك ؟ »
انخفضت لورا هذه الفرصة وقالت :

« قدمك طويلتان والريح قوية . »

انقسم دومنيك ثم قال :

« لا يمكن لمن يراك أن يصدّق أنك ابنة خال كليبواترا . »

« أنتم ، آل تريفانين ، عكسنا ، إذ تشبهون بعضكم في شكل والوجه . »
« هل سبق لكليبواترا أن حدثتك عن ترويلوس ؟ نعم ، ترويلوس تسكن ويشبه يوبرغرين أكثر مني . »

سخر إليها في سخرية جعلتها تشعر بالحيرة والارتباك . بالأمس كانت حتر هبته سوداوين مثل أشبه ، لكن في ضوء النهار أدركت أنها زرقاوان . لحة البصر بدا لها أن وجه دومنيك تغير كلياً .
انقسم لها وأكمل شرحه وأشار إلى مكان اللقاع الذي كان يقع بعيداً مجموعة من المنازل .

« في الماضي كنّا نستخرج الحجارة ونبيعها كما هي ، أما اليوم فقلدينا صنع أصقلها . هل تشاهدتين هذه الأهرامات هناك ؟ إنها أنقاض . »
نظرت لورا في اتجاه أصبعه الممدودة واكتشفت وجود تلال غريبة تعلو أرض الفاحلة . لماذا يقدّم دومنيك كل هذه التفاصيل حول المكان ؟ لا ست أن أنانيته تتوقى قلّة تهذيبه . وصعب على لورا أن تظهر اهتماماً بهذه الأماكن الفاحلة المنقرّة التي هي كناية عن مركز صناعي ومنظر على . وأمام هذه الفكرة ، ارتعشت لورا فساءها :

« هل تشعيرين بالبرد ؟ »

« كلا . لكنني أجد هذه المنطقة حريّة جداً . »

« الحقّ مكفهر اليوم والسياء رمادية . في الربيع ، الطقس يختلف كلياً يسرين ذلك بنفسك . »

سأته في لحظة أسفة جعلته يتقجر ضاحكاً :

« هل تعرف هذه المنطقة فصل الربيع ؟ »

ثم أضافت :

« أه ، المفردة التي أتقوّ بالحماقات . كانت العدة فلورا تحلّيني دائماً ، لأن كليبواترا تلعب الدور نفسه . »

فقطها دومنيك في نقاد صبر ملأه :

« لا تعيري انتباهاً لأفكار كليوباترا. »

« ما زالت تعتبري الفتاة الصغيرة التي عرفتها قبل أن تتزوج. وأحياناً
يرزعجها تصرفي. »

« أه، صحيح! »

راحت لورا تتسائل ما إذا كان دومنيك رافقها في نزعتها هذه من باب
اللياقة، وتأسفت من جديد لأنها لم تأت وحدها وتكتشف المكان حسب
هواها. لماذا يعتبر آل تريفان أن من واجبه أن يشيدوا بتملكاتهم أمام
ضيوفهم؟ ووصلت إلى القرار في أنه لو كان أمامها الاختيار لفضلت
بيرغرين كدليل لها. على الأقل كان قد أضحكها وسلاها.

أثناء العشاء كما في أثناء الغداء آل تريفان يأكلون في صمت ويغادرون
غرفة الطعام متى انتهوا من الأكل، من دون مراعاة بقية الضيوف.
وانتهت كليوباترا لاندعاش ابنة خالها، فعلمت ضاحكة على القواعد
العامة للياقة الحسنة. لكن ذلك لم يمنع دومنيك من مغادرة طاولة الطعام
وهو يعلن قائلاً:

« على ابنة خالك المهذبة أن تتكيف مع عاداتنا وتقاليدنا. »

غادر الغرفة ولما أغلق الباب وراهم استرخت كليوباترا في مقعدها
وأشعلت سيجارة وأعلنت للورا التي كانت ما تزال أمام الطاولة كأنها في
انتظار بقية الطعام:

« هنا، لا تقدم الفاكهة أو الحلوى أو القهوة. كما ليس من عاداتهم
التجمع حول المدفأة بعد العشاء. »

فلمت لورا لتوتر ابنة عمتها التي لا يعجبها هذا الإهمال. عندما تكون
كليوباترا في هذه الحالة من الانزعاج، تحاول أن تزجج انساناً آخر لا علاقة
له بالامر. لكن لورا لم تعد تلك القرينة السهلة المثال. منذ وصولها إلى
باتسيون وهي تراقب طبيعة ابنة عمتها وتصرفها الذي لا يختلف عن
تصرف ابنتها الصغير الذي يبلغ الخامسة من عمره.

أجابته لورا في هدوء مزعج:

« لست في حاجة للفاكهة أو الحلوى أو القهوة. ولا حتى التجمع حول
الموقد. أفضل أن أجلس في غرفة المطالعة. »

لست كليوباترا في جفاف وهي تنظر إلى النار المرتفعة:

« غرفة المطالعة هي المكان المفضل لسيد المكان. وحذار أن تزعجه. »

ثم علمتها لورا بأن الرياح المتواصلة تهدد دائماً بانقطاع التيار
الكهربائي عن المنطقة. لكن آل تريفان زودوا باتسيون بمولد كهربائي
يسر استعمالونه في الحالات الطارئة.

لست كليوباترا في لهجة عدائية:

« في كل حال، دومنيك لا يجب أن نحومي حوله ونزعجه بالأسئلة حول
زوجنا. »

تسكن كليوباترا من إثارة غيظ لورا التي ظلت غير مبالية بكلام ابنة
عمتها غير أنها توصلت أخيراً إلى أن تجعلها تقول في تلثم:

« لا أنهم بعد الآن سبب احتجاجك. »

« أرغمت على التنزه معك طيلة فترة ما بعد الظهر بينما كنت في حاجة
إلى تناول حديقاً جديداً. ولما عاد، لاحظت أنه مل معك حتى الموت. »

لست الانثناء سمعت أصوات رجال في البهو، فابتسمت كليوباترا في
سر وانقضت واقفة وهمت بالذهاب للقاء الشقيقتين.

ميريام التي كانت تسمع ما يدور من حديث بين الفتاتين بينما كانت
تسب محاولة الطعام همت تقول:

« ما تضيق وقتها. آل تريفان لا يلبقون بها. »

لمت لورا مستغربة:

« لماذا؟ »

« ميريام لم ترد عليها. »

« حسرت لورا بالتعب بعد أول يوم لها في هذا العالم الجديد، فسألت
ميريام في تردد:

« هل تعتقدين أن في امكاني الذهاب الى فراشي الآن؟ »

« من عتبة غرفة الطعام ون صوت مستاء يقول:

« لست في حاجة إلى أن تطلي اذنًا بذلك! هل ستستأذنين للاستحمام
لست؟ »

« كيف باستطاعتي معرفة ما يمكنني فعله في هذا المنزل الغريب؟ ربما كان

ابسم دومنيك، فوجهت لورا سؤالها الى ميريام : « هل في امكان مساعدتك بشي » .

قال دومنيك في الحال :

« كلا. اذهبي الى فراشك . واذا اردت الاستحمام ، فاستغدي من ذلك ، إن الماء ساخن الآن ! »

« اذن ، تصبح علي خير . »

كان دومنيك واقفاً أمام الباب ساداً عليها طريق المرور . فشعرت بالزعاج وتوقفت امامه منتظرة أن يقسح لها في مجال الخروج . ولاحظت لورا أن عيني سوداوان ووجهتان مثل عيني بيرغرين .

قال :

« لم أكن على استعداد لاستقبال فتاة من طينتك عندما طالبت بحضور أرملة أخي الى هنا ! »

صوته يختلف كلياً عن صوت بيرغرين . ولاحظت في وجهه بعض الانزعاج وفكرت بابتة عمتها التي لا شك أنها كانت صادقة عندما قالت إن دومنيك قسح منها خلال فترة ما بعد الظهر . فسأته :

« كنت تسمى خادمة أولاد ، أليس كذلك ؟ »

قال في استغراب بعد أن اخضت من وجهه المخلق فيها سمات السخريه :

« لا يهم ! أنت زائري قبل كل شي . »

ابسم لها في لطف واضاف :

« لا تغلغي ، يا آنسة سميت ، مستعدين على طريقة حياتنا واني متأكد من أنك ستعود على نمط حياتك أيضاً . اذهبي الى فراشك . مع الوقت ستكتسبن أن كل ترفيحين يحدثون ضجة كبيرة ، لكنهم لا يؤفدون أحدًا . »

صاح على خيرا

ثم انصرفت ليدعها تهر ، واجتازت لورا البهو متوجهة الى غرفتها .

بدأت لورا تألف الضجة اليومية وخاصة الأصوات الكلاب وتعليقات ميريام

التي سمعها حتى الشجار العنيف الذي يحدث في استمرار بين الشقيقتين .

بدأت تتعود عليه . عمل الأزهار حيث كانت تعمل

فيها الصغيرة ، أصبحتا بعديتين كأنهما خيالان .

كانت لورا ذات يوم لكلوياترا :

« حظي كبير . ما كان تسقى لي المحبة الى هنا لو لم تغفل المربية في الساحة الأخيرة . »

استها كلوياترا غير مقتنعة وقالت :

« أنت تسأل ما اذا كان ما تقولين صحيحاً . أنت عاطفية جداً . ولا تتعلمي كثيراً بالشقيقتين ، وتبني آمالاً وهمية عليها . »

« ولأن ماذا ستخبرين ؟ »

« لا لا اخترع شيئاً وأنت تعرفين ذلك غاماً . لا يمكن ليبري أن يمنع من معارضة كل النساء وخاصة إذا كان ذلك يزجج دومنيك . . . »

« لا أرى ما الذي يجعل دومنيك يفتأ من تصرف بير . وفي كل حال سيست لا يتم به عمل ما أظن ! »

« لا ! لكن دومنيك ، بالرغم من قلة ثقافته ، يصر على احترام مدعويه . ربما حاول بير يغري اغراءك فقط من أجل الحافزة . »

« طبعه السيء ! »

« يشبه ترويلوس غمام الشبه . طبعه سيء كما قلت ، لكنه كان مرحاً . »

« ولم أمل معه لحظة . »

« وجه المرأة قليلاً فشجرات لورا على القول :

« ولما أن بيرغرين يشبه زوجك غمام الشبه ، ألا تشعرين . . . برغبة في ج منه ؟ »

« حركات تكشيرة وجه كلوياترا الى تعبير مر وسافر :

« يا عزيزتي الحاملة ، ليس بير من نوع الرجال الذين يتزوجون . »

سألتها لورا التي تعتقد أن زواجاً ثانياً يساعد نيكولا على تأمين

« لم أفقد كل شيء » ، يا لورا الحكيمة . إنهم شقيقان في كل حال ، أنت أيضاً تطمعين بهما . »

« آه ، ما هذا يا كليوباترا ، أكاد لا أعرفهما . »

أصرّت كليوباترا على متأكدة لورا وقالت :

« حذار . لا تحاولي التسلية والمرح مع ييري ، لأنّ دومينيك له آراء بالية في الفتيات ولا أريد أن يطرود مربية ابني لأنها لم تستطع ضبط غرائزها ! »
أطلقت كليوباترا هذا التحذير من دون تفكير فقط من أجل إيجاد موضوع طريف خلال هذا الصباح الرتيب ، غير أن لورا لم تأخذ وقتاً طويلاً لتدرك أن كليوباترا علي حق .

كانت تتسلق كرسياً لالتقاط كتاب عندما دخل بيريفرين إلى غرفة المكتبة من دون إحداث ضجة عائداً من الملعب . فأمسك بها من تحصرها . فافلتت لورا منه ضاحكة فارططمت من دون انشياء يدومينيك الذي كان يحترق الممر . فسألها :

« لماذا تركضين هكذا ؟ »

أجابته من دون حذر :

« بسبب بيريفرين . »

ظهر بيريفرين الذي كان يلحق بلورا .

فقال له دومينيك في غضب :

« دع هذه الأساليب الملتوية لعاشراتك السيئة ! »

أجاب بيريفرين ساخراً :

« وضعت نفسك في حماية دومينيك ! أنت لست بالفتاة التي يمكنني أن أغريها ، يا عزيزتي . وأرجو ألا يخيب أملك ! . »

صرخ دومينيك :

« اخرج من هنا . »

أحس بالذلال الشتام ، وفي النهاية خرج بيريفرين صاففاً الباب بقية

الليلة . بعد لحظات سمعت أصوات محرك سيارته فالتفت دومينيك نحو

ترجعت لورا غاضبة :

« إن أنصرف بانزان ؟ سبق أن قالت لي كليوباترا هذا الكلام . »

فخرجت قسمات وجهه وعاد يقول في لحظة هادئة :

« هل صحيح أن كليوباترا قالت لك ذلك ؟ ليس هذا ما كنت أتوي . واني أتساءل لماذا تفكر . . . تجاهك . هل تدفع لك لقاء

« كلا . لا مجال لذلك بين الأقارب ! »

« هذا ما يلائم كليوباترا تماماً . »

ترجعت لورا من هذا الحديث وكانت تأمل ألا يفتح هذا الموضوع مع كليوباترا ، لماذا تخيلت أن دومينيك سيصف بجانبها ؟ إن آل تريفارين غير

« أطلقت زفرة طويلة ، فابتسم لها دومينيك هازئاً وقال :

« كنت أريد أن أتبهك ، يا لورا ، أن تحترسي من أخي . هذا ما كنت

« حجج قاتلة :

« أعرف تماماً كيف أنصرف . عمري ٢٠ سنة ولدي خبرة لا يأس بها في

« الحقيقة الجميع يريد أن يقدم لها النصائح . أجاب :

« ما تزالين صغيرة ، يا لورا . »

« لك تعتبرين صغيرة ، ليس كذلك . لا شك أني أبدو ساذجة وأنوثي

« لا تخجل من شبابك ، إنه جزء من سحر وجاذبيتك . »

« رجعت لورا بهذا الكلام . ورفعت نحوه نظرات متسائلة . فاشتكت

« رجعت لورا وأبها فيه . أصابعه الدافئة حول عنقها أزالت عنها العدائية التي

« لها له وابتمت ثم قالت مثلثة :

« أنت إنسان غير عادي . »
 « ليس أخي هو الوحيد الذي يعرف كيف يفاجئ النساء . غداً ، بداية فصل الربيع . وسأريك أن الربيع يأتي إلى هنا . »

٤ - النزهة

« اليوم الأول للربيع . . . رنّت هذه الكلمات مثل عبارة سحرية . وفي الثاني قفزت لورا من سريرها وأسهرت نحو النافذة . كان الطقس رائعاً والبحر والسماء أزرقين ، لكنّ الأزهار لم تتفتح خلال الليل . لم تكن تحب الاشارات الخفية التي تعلن ميلاد الربيع بعد الشتاء القاسي .

كانت لورا في صوت عالٍ ومتوتر :

« هل ظننت أن كل شيء سيبتدل كلياً ؟ »

« سيبدأ في جديدة :

« لنبدأ رنّت صغيرة وتؤمنين بالمعجائب . »

« سيبدأ اليوم الصيفية التي تحملها كل صباح إلى لورا . وتقدمت من

« حيث كانت لورا لا تزال تحلق خارجاً .

« ألا ترى النباتات الصغيرة والبراعم الطرية الخضراء . وهذه النحيلة مستطرح عما قريب الزهر الصغير الملون . . . وعلى طول السطح مشجدين لا وندة البحار ، والقصاب وعدداً لا ينتهي من النباتات . عليك إلا أن تفتحي عينيك في فصول ! »

كلام ميريام أطلق غميلة لورا فقررت أن تذهب في نزوة برفقة لورا ويدلاً من أن تعود إلى فراشها لتناول الشاي كماعتها ، سارعت في قفجائها وراحت تعد نفسها من دون أن تبالي بوجود ميريام التي كانت أن تبقى مطولاً برفقة لورا التي سألتها :

« لماذا عارض العجوز تريقاين زواج ترويلوس من ابنة عمي ؟ »
أنه اختار له عروساً أخرى ، لكن في أيامنا هذه ، هذه الأمور باتت بالية . »

مسحت ميريام الغبار عن متفردة الزينة بطرف فستانها وقالت :
« العروس كانت في انتظار مولود من ترويلوس بالذات وكانت سرى إلى عائلة كبيرة في المنطقة . ولما رفض ترويلوس الزواج منها ، انتهت بالعار . »

فوجئت لورا بهذا وتأثرت جداً . هل كانت كليوباترا تعرف هذا عندما هربت مع ترويلوس ؟

تابعت ميريام في هدوء ولا مبالاة :
« القضية كانت مؤلمة جداً . وعقد دومنيك الأمور باقتراحه للزواج . »
الفنائة . »

وقفت لورا جامدة وفتحت عينها وقالت :
« وكان دومنيك على استعداد للنضحية من أجل انتقاذ شرف العائلة . »
« كلا . هذه الفنائة كانت خطيئته قبل ذلك . »

« آه لا ! إذن لم يكن العجوز تريقاين يريد لها زوجة ترويلوس ؟ »
« أبداً . لم يكن يشم إلا بتزويج ولده البكر ، وويته الأول . »
ابنة عمك على ذلك . »

« كلا . هي تعتقد أن ترويلوس كان يعمل بنصيحة والده . »
زواجاً عقلياً . »

« يا ميريام ، وليس لها ؟ إنه قادر على خلق مثل هذه الكذب . في الحقيقة ، ليس لها ؟ »
« يا ميريام ، ليس لها ؟ إنه قادر على خلق مثل هذه الكذب . في الحقيقة ، ليس لها ؟ »

« يا ميريام ، ليس لها ؟ إنه قادر على خلق مثل هذه الكذب . في الحقيقة ، ليس لها ؟ »
« يا ميريام ، ليس لها ؟ إنه قادر على خلق مثل هذه الكذب . في الحقيقة ، ليس لها ؟ »

« يا ميريام ، ليس لها ؟ إنه قادر على خلق مثل هذه الكذب . في الحقيقة ، ليس لها ؟ »
« يا ميريام ، ليس لها ؟ إنه قادر على خلق مثل هذه الكذب . في الحقيقة ، ليس لها ؟ »

« يا ميريام ، ليس لها ؟ إنه قادر على خلق مثل هذه الكذب . في الحقيقة ، ليس لها ؟ »
« يا ميريام ، ليس لها ؟ إنه قادر على خلق مثل هذه الكذب . في الحقيقة ، ليس لها ؟ »

« يا ميريام ، ليس لها ؟ إنه قادر على خلق مثل هذه الكذب . في الحقيقة ، ليس لها ؟ »
« يا ميريام ، ليس لها ؟ إنه قادر على خلق مثل هذه الكذب . في الحقيقة ، ليس لها ؟ »

« يا ميريام ، ليس لها ؟ إنه قادر على خلق مثل هذه الكذب . في الحقيقة ، ليس لها ؟ »
« يا ميريام ، ليس لها ؟ إنه قادر على خلق مثل هذه الكذب . في الحقيقة ، ليس لها ؟ »

« يا ميريام ، ليس لها ؟ إنه قادر على خلق مثل هذه الكذب . في الحقيقة ، ليس لها ؟ »
« يا ميريام ، ليس لها ؟ إنه قادر على خلق مثل هذه الكذب . في الحقيقة ، ليس لها ؟ »

تجحت في إيجاد عريس لها وتزوجت .
« من تزوجها ؟ »

قالت كليوباترا وهي تدخل إلى الغرفة من دون أن تطرق الباب :
« لورا ، ماذا تنتظرين لتذهبي إلى نيكولا ؟ يريد أن ينهض من سريره ولم أعد أطيع صراخه . »

قالت ميريام في لهجة عتابية :
« كان في إمكانك أن تهتمي به ولو لمرة واحدة . »
« هذا شأن لورا . »

« أنت لا تدفعين لها أجره عملها . »
انزعجت كليوباترا وقالت :

« كيف تسمحين لنفسك بانتقادي ؟ »
« أنا لست في صدد انتقادك ، كل ما أريد قوله أن اليوم هو يوم أحد وأول فصل الربيع . والأمور مستغربة . »
وغادرت المكان ، فهزت كليوباترا كتفها وقالت :
« يا لهذه المرأة الوقحة ! »

جلست لورا أمام منصدة الزينة للزین وجهها وتعتطر خديها . فصرحت كليوباترا :

« تعالي الآن . لن يلاحظ نيكولا إذا ما كنت قد زينت أنفك أم لا ، حتى الشقيقتان لا يلاحظان ذلك ، على ما أظن . »

أكملت لورا وضع الحمرة على شفثيها من دون مبالاة وقالت :
« إن ما أفعله هو من أجلي فقط . »
فجأة صرخت كليوباترا :

« يا امرأة متطلية . أنت جميلة يا حبيبي ، لكن من فضلك كوني لطيفة حتى نيكولا . »

« يا سيدي في مزاج سيء . لم يكف عن القيام بحركات بيننا كانت لنا حينها مساعده على ارتداء ملابس . وبينما كانت تقوم بذلك راحت تسعيد ما قاتته ميريام . انها ترى الآن دومنيك ترغابن في صورة آخر وبذلك تدرك طريقة تصرفه . وتفهم مرارته الجارقة وتصرفه »

أحزاناً

ومعجاة صرخت :

« نيكولا ، اهدأ قليلاً . »

« راحت تتأمل وجهه الصغير الذي يشبه وجه بيريفرين . كيف ينظر إليك إلى هذا الولد الذي يذكره بحوادث أليمة ؟ »

« سألها نيكولا في فرح :

« لماذا لا نذهب إلى الكنيسة ؟ »

« لا أعرف . »

« آموس يذهب كل نهار أحد . فلماذا لا نذهب نحن أيضاً ؟ القسيس يحدث عن الجحيم . هل صحيح أننا نفوس معذبة ، يا لورا ؟ »

« لا ! دعني أمشط شعرك . . . إذا أردت فعلاً الذهاب إلى الكنيسة ، يجب عليك أن تطلب ذلك من دومنيك في لطف وتهذيب . وأنا متأكدة من أنه لن يرفض طلبك ، بل سيرافقك إلى الكنيسة . »

« لا يمكنه أن يذهب إلى الكنيسة . لقد فقد روحه . »

« يا لهذه التفاهة ! »

« بل ، آموس قال لي ذلك ! قال انه يحمل آثار قايين . »
ولعدة لحظات فقدت لورا قدرتها على الكلام . صمعتها هذه الأقوال .
« شك أن آموس يقارن دومنيك وترويلوس بقايين وهابيل ، الشقيقتين الحسنتين . »

« اسمعني جيداً ، يا نيكولا . إن آموس مخطيء تماماً . الكدعة في خد دومنيك ناتجة عن حادث بسيط . أنت أيضاً تحمل آثار سقطة في ركبتيك . »
تفحص نيكولا ركبته وقال :

« هل سقط دومنيك لأنه لم يكن ينظر أمامه ؟ »

« لا شك في ذلك . »

« لكن الولد رمقها بنظرة مليئة وقال :

« لا . يا مومو ، الأشخاص الكبار لا يقعون مثل الصغار . أنت تكذابين عظيمين . أنت أيضاً . »

« انتهت لورا من تناول فطور الصباح ، لاحظت في حزن أن

الفرح الذي انتابها عندما استيقظت وتى. لم يتسن دومنيك ما وعدها به :
« نستطيع أن نأخذ السيارة في جولة استكشافية في المنطقة، إذا كان الأمر بغيرك ؟ »

صرخت بعدما استرجعت هجتها ثلثانياً :

« أم، أرعب جداً في ذلك. »

أقوال ميريام جعلتها ترغب في الظهور بمظهر محب تجاه دومنيك.
« كنت أفكر في الخروج واكتشاف الأشياء الجميلة التي حدثتني ميريام عنها. »

كانت الخادمة تعد مائدة الطعام وقالت :

« سأهتم بنيكولا. »

قال دومنيك :

« كنت أود تنظيم نزهة نصطحب فيها بعض المأكولات ونأخذها في الهواء الطلق ونصطحب أيضاً نيكولا معنا. لم يتسن لي فرصة التعرف إلى نيكولا كما يجب. هل تحب أن تأتي معنا، يا نيكولا ؟ »

أجاب نيكولا في الحال :

« كلا. »

« ستأتي والدتك أيضاً وكذلك مومو. »

« وأموس ؟ »

« كلا، أموس سيقضي هنا، فهو مرتبط بأعمال ضرورية. »

« أريد أن أبقى معه. »

« لكن ليس اليوم. »

ظل دومنيك محافظاً على هدوئه. وبيريغرين يتابع الحديث في صمت.
وفرح جداً لوقفة فعل نيكولا، إذ رمقه بضمرة عين متأمرة وقال له :

« سنذهب جميعنا، يا نيكولا. ويمكنك أن تستقل سيارتي. لكن، إذا فضلت البقاء مع أموس، فسأخذ معي أحداً آخر. »

تغيرت ملامح الصبي في صورة جذرية. فأسرع إلى أحضان بيري والنج عليه متوسلاً أن يصطحبه في سيارته الجديدة. فلأحظت لورا في الحال أن سحابة حزن غمرت وجه دومنيك وشعرت برغبة ملحة في أن تصفع

بيريغرين !

قال دومنيك وهو يقف :

« اتفقنا. سترافقينا، يا ميريام. وسترين لورا أفضل مني أشارات الربيع الخفية. وأنت، يا بيري، بما أنك ستأخذ نيكولا في سيارتك، فعليك أن تغلق غطاء السيارة لأن الطقس ما زال بارداً. لورا، أرجو إعلام ابنة عمك أن تستعد وتكون جاهزة في الساعة الحادية عشرة والنصف. »
وبعدما انتهى من إصدار أوامره في لهجة جافة، غادر سيد بالسيون الغرفة.

قال بيريغرين في سخرية وهو يرمق لورا بإبتسامة وقحة :

« رأيت الآن السيد الجشع في كل رونقه وعظمته. »

ولأنها لم تكن ترغب في المزا من دومنيك في هذه اللحظة بالذات، فقد قالت له ببرود :

« لا أجلك هذا الإنسان المسلي أبداً. »

قالت ميريام وهي تشرح شعرها :

« النكتة لا تنجح دائماً. نيكولا، الصبيان الصغار الذي يصون أصبعهم يذهبون إلى الجحيم. »

أجابها الصبي متسائلاً :

« وأنت، هل ستذهبين إلى الجنة ؟ »

« طبعاً. لورا، يجب أن تذهبي وتقولي لكليوباترا أن تعدّ نفسها. أما أنت، يا نيكولا، فيمكنك أن تأتي معي إلى المطبخ وتساعدني في إعداد سانتويشات الجبنة والدجاج وبقية اللحوم الباردة. لا شك أن الخبر أصبح قاسياً... »

خرجت الخادمة من غرفة الطعام وهي ما تزال تتمتع ببعض الكلمات. وما إن أصبحت خارج الغرفة حتى صرخ بيريغرين قائلاً :

« يا لهذه المعجزة المجنونة ! كانت عشيقه والذي، هل تعرفين ذلك ؟ »
لزمّت لورا الصمت هي التي تعودت على وقاحة الخادمة وقلة لطفها. لكن وجهها كان يعبر عن عدم إعجابها بالخادمة، فراح يسخر منها ويقول :

« نسبت أنك إنسانة على أفضل ما يكون من تربية وأخلاق، يا آنسة سميت ! ألم أنبهك من قبل أن الحياة بين القراصة لا تناسبك ؟ »
 أجابت باللهجة نفسها التي تستعملها عندما توبخ نيكولا :
 « دمع تقاعثك لنفسك ! »
 وفي غفء، ارغمي بيرغرين عليها وراح يوبخها بدوره قائلاً :
 « لمن تلقيني درسا ؟ »
 أخذ يعانقها في قوة وحشية، ثم أبعدها عنه وقال ساخراً :
 « ماذا تتظنين كي تصرخي الآن ؟ »
 « من أجل عناق كريمة، أنت تفرح ! »
 « أبنتها الفتاة المزعجة ! »
 لكن هذه المرة عانقها في نعومة. ولم يتوقف إلا لدى سماعه صوت دومينيك، أدارت لورا وجهها في الحال. وفي المرأة المعلقة في الجدار رأته يدخل وراح ينقل نظره من بيرى الى لورا من دون أن ينطق بكلمة. ملامح وجهه كانت حيقة.
 فسأله بيرى في هجة غير عيالية :
 « هل كنت تبحث عني، يا دومينيك ؟ »
 « نعم. أنا في حاجة إلى من يساعدني لترتيب باب المغسلة. »
 وفكرت لورا بأن النهار بدأ خطأ وهي تصعد لتعدها نفسها وتغير كليوباترا بموعد الزهرة. لا شك أن بيرى يبحث عن المشاكل، كما قرر نيكولا أن يتصرف بكراهية حتى لا يبطئه أحد. وإضافة إلى ذلك استقبلت كليوباترا فكرة الخروج إلى الزهرة في احتجاج عنيف إذ قالت :
 « بدأ آل تريفان يقومون بمشاريع سياحية ومخططون للزهور الآن !
 هل أنت سبب هذا التغيير الجذري ؟ »
 « لا اعتقد. يأمل دومينيك في اصطحابي لأرى القرية في هذا اليوم الأول من الربيع، ويريد كذلك أن يحاول التقرب أكثر فأكثر من نيكولا. عليك أن تقومي بجهد يا كليوباترا والمجيء معنا. »
 « أنت على حق، يا لورا. »
 نهضت من سريرها في تردد وقالت :

« اتي سبعة جداً لأن دومينيك بدأ يهتم بنيكولا. »
 « للأسف لم يكن نيكولا يطلق اليوم. إنه متعلق تعلقاً أعمى بأموس. ولو لم يقترح عليه بيرغرين أخذه في سيارته لما اقتنع بالمجيء معنا. »
 « هل بيرى أت هو أيضاً ؟ »
 فرحت كليوباترا بالقصة وفي الحادية عشرة والنصف كانت جاهزة في البهو. كانت تبدو على أثونة واضحة في سروالها الضيق وسترهما القصيرة. غير أن ميريام كانت ترتدي فستاناً من عهد جدتها. أما بالنسبة إلى نيكولا فكان يبدو أهدأ حتى بيرى عدل عن نظراته المتحدية. وشعرت لورا بأرتياح.
 وحيث أن دومينيك هو الوحيد المترجع. لا شك أنه لم يكن معتاداً على التزهات برفقة العائلة كلها. ولما طلب من لورا أن تجلس قرب ميريام في المقعد الخلفي لسيارته سأله :
 « هل هذه الزهرة في الهواء الطلق هي الأولى بالنسبة إليك ؟ »
 « نعم. لقد قطنت للأمر ! في يتسبون هذا النوع من التسلية تادر للغاية. كما أننا لا نستقبل الزوار. »
 « إذن، فعلت حسناً في دعوة ابنة عمي وابنها وأنا، أليس كذلك ؟ »
 « فعلت حسناً، يا آنسة سميت. »
 كانت كليوباترا تجلس في المقعد الأمامي قرب دومينيك. ونيكولا يستقر في سيارة بيرغرين الذي بدأ محركها القوي يصدر أصواتاً غريبة. كان سعيداً للغاية.
 كانت لورا تتحدث في ظهر دومينيك بينما كان يخرج من الباب الحديدي للمنزول وراء سيارة بيرغرين. ألم يندم على هذه البلبلة في عاداته ؟
 أما ميريام فكانت معجبة بدورها كدليل. وكانت تشير إلى الآثار السلتية وتخبرهم عن آلاف الأشياء الأخرى التي مبروها في هذه الزهرة. لكن في الواقع لم يروا شيئاً.
 لم يعد دومينيك يرى سيارة بيرى أمامه. فقد أسرع هذا الأخير في سيارته ليرح الصبي ويظهر عظمة سيارته. لكنه توقف فجأة على طرف الطريق في منطقة معرضة للريح. فوصل دومينيك بعد لحظات وأوقف سيارته خلف

سيارة ييري الذي أعلن قائلاً :

« لن أقوم بخطوة مع هذا الصبي . »

أجابته دومنيك في جفاف :

« لو لم تنطلق بسرعة كالجنون، لما تقياً نيكولا . »

أرادت كليوباترا تنظيف الأوساخ التي أحدثها نيكولا، لكن لورا هي التي قامت بتنظيف الصبي وعندما أرادت أن تنظف السيارة أمسكها دومنيك بكتفها وقال :

« اتركي هذا العمل المرهق لأخي . »

بدأ بيريفرين بإطلاق الاحتجاجات العنيفة فراح نيكولا يبكي .

طمأنه دومنيك قائلاً :

« ليس هناك شيء خطره يا بني . »

وللمرة الأولى ابتسم نيكولا بالرغم من الدموع المنهمرة على خده . في الحال أطلق ييري رأياً مضحكاً ليمنع أخاه من تسجيل نقطة انتصار . وفكرت لورا بترويلوس . إن بيريفرين يتصرف مثله غاماً في محاولاته المستمرة لجرح شعور دومنيك بأساليب حقيرة . . .

قال بيريفرين :

« هذه النزعة فكرة غير معقولة ! »

أكد دومنيك الواصل تماماً من نفسه :

« عد إلى بانسيون إذا ما رغبت في ذلك . أنا لن أبقيك معنا بالقوة . »

« إذن . . . سأبقى . . . لا أريد أن أدعك تفرح برحلي ! »

لورا التي تريد منع حدوث عراك بين الشقيقتين العدوين قالت :

« في إمكاننا أن نتناول الطعام في تلك الزاوية، وراء الصخور المحمية

من الريح القوية . »

كان دومنيك شاكراً لما لتدخلها المفاجيء . . . ابتسم لها وأخرج سلة الطعام من صندوق السيارة .

قررت ميريام الهبوط من السيارة فرمقت بيريفرين بنظرة ثابتة ونصحته بأن يراقب تصرفاته وحركاته . بالرغم من أنها كانت تبدو غائبة فأظهرت بهذه الكلمات أنها كانت تراقب عن كثب كل ما حدث .

وبينا كان دومنيك يفرغ محتوى السلة اكتشفت أن ميريام نسيت أن تحضر الصحون والشوك والملاعق . فقال :

« لا يتقصدنا بعد سوى أن نأكل بأصابعنا ! »

لم تستطع لورا منع انطلاق ضحكها العالي، وتبعها كليوباترا في الحال وقد تمحدرت على الشرف المنبسط على الأرض وقالت :

« أننا نؤلف لوحة هزلية ! نزهة وطعام في الهواء الطلق في شهر آذار ! أم، سأذكر مطولاً اليوم الأول للربيع ! هل لورا هي التي أثرت عليك كالوباء بأفكارها الجنونية، يا دومنيك ؟ »

تبدله المفاجيء . كان دليلاً واضحاً على أنه لم يستحسن مزاح المرأة . ولحسن الحظ استرخى الجميع غير أن بيريفرين كان يحاول باستمرار إفساد جهود أخيه الكبير الذي يسعى إلى كسب ثقة الولد . ولاحظ نيكولا أنه أصبح يحط اهتمام عميه . وغيل إليه أن في إمكانه أن يفعل ما يريد . ميريام الحاملة لم تتدخل في الأمر . أما كليوباترا المستندة إلى الصخرة، فكانت مغمضة العينين . لورا وحدها تتبج خطورة الموقف وتطوره .

نيكولا الذي لم يأخذ قبولة النهار بدأ لا يطلق .

ولما دعاه دومنيك للقيام بجولة حول الجبل الصخري . رفض في قلة تهذيب والتفت نحو بيريفرين وقال له :

« أريد أن ألعب لعبة الحصان القارن ! »

فسالت لورا :

« أليس هناك أسطورة حول حصان القارن ؟ »

ظهر في عيني ييري بريق ساخر وقال :

« نعم، هناك أسطورة غريبة . »

« أخبرنا إيها، فسيفرح نيكولا بها . »

« أشك في الأمر . ما رأيك، يا دومنيك ؟ »

كان السيد يدخن الغليون ويجهل سؤال أخيه ولم يبال في الرد عليه . ثابته كليوباترا وتمحدرت مثل مرة وقالت :

« لورا تحب الاساطير حتى الجنون . أما أنا فأبني أمل منها حتى الموت . » قال بيريفرين ساخراً :

« لست في حاجة لأن تصغي ما دام الأمر لا يمتك . من زمان كان هناك حيوانات هي عبارة عن حيول ذات قرن في منتصف الرأس . إنها حيوانات فخورة ولا تفخر . وكان من المستحيل القبض عليها بوسائل الصيد الاعتيادية . اتعرفون كيف كان يتم القبض عليها ؟ »
 في تعبير ساخر راح يتألم كليبواترا ، ثم لورا : فقال نيكولا :
 « كيف ؟ »

« لانتقاط حصان القارن . كان الصبايون يستعملون فتاة عذراء كتعلم جلاب . . . »

« فتاة عذراء ؟ ماذا يعني ذلك ؟ »
 استاء نيكولا من هذه القصة التي لم يفهمها ، فصرخ قائلاً :
 « ان قصتك تافهة ، يا عمي ييري ! »
 نظر دوميك مطولاً وفي غرابة إلى وجه لورا التي بدأت تضطرب وتشعر بالانزعاج ، ثم قالت في ثلثم لتخفي تورتها :
 « إنها قصة مليئة بالرموز ، يا نيكولا . »

وفي الخيال سيال الولد ما معنى كلمة « رموز » ، فسارعت ميريام إلى القول :

« الرمز يعني على حقيقة خفية . ستفهم معنى ذلك في المستقبل . عند آل تريفاين حصان قارن . وربما تحولت أنت يوماً إلى حصان قارن . »
 أطلق الصبي صرخة رعب ، قراحت كليبواترا تؤنب ميريام قائلة :
 « لماذا تخبرينه كل هذه التفاهات ؟ »

وبدلاً من أن يهتم بابنهما ، راحت تنظر إلى بيرغرين في إمعان ، ثم أعلنت فجأة أنها تشعر بالبرد وتود أن تمشي قليلاً . قبضاً معاً بعد تفاهم بالنظرات وابتعدا من دون أن يدعوا أحداً ليرافقهما . حاولت لورا بكل جهدها إرضاء الولد ومواسئته من دون جدوى .

قال دوميك في صوت خفيض :
 « إي آسف جداً . لم أكن أريد أن أريك الرعب في هذا المظهر ، يا لورا . »

نهضت لورا فجأة وقالت :

« نيكولا في حاجة إلى أشط فليولته . سأحاول أن أدعه ينام في السيارة . »

تبعها الولد من دون أن تلح عليه . وبعدما عادت لورا إلى حيث كانت جالسة برفقة دوميك ، سألت في قليل من الحذر :

« هل يضايقت نيكولا ؟ »
 أجاب في لهجة حزينة :

« كلا ، التي أتالم فقط من الشعور والاشمئزاز والبغض الشديد التي يشعر بها نحوى . لو يترك لي بيرغرين خطأ واحداً مع نيكولا لـ . . . »
 لم يشأ إكمال جملة ، إذ أنه متساء حقا من تصرفات أخيه الوقحة . هل أن دوميك يقارن هذه التصرفات بالفسرة القاسية التي أوقعه ترويلوس بها ؟

قالت لورا :
 « إن بيرغرين يتصرف مثل ولد متقلب الأطوار . »

« لا تغفل من أهميته ، يا آسة سميت . إنه يبلغ السادسة والعشرين من عمره ويتصرف تصرف الكبار الناضجين . وأفضل لك ألا تنسي ذلك . »
 تكلم بلهجة لا مبالية لكن نظرتة القاسية جعلت لورا تحمر خجلاً . ما بقوله بمثابة إنداز لها .

« إي ناضجة أعظم ينسي لماماً ، كما أعرف كيف يجب أن أتصرف . شكراً . »

« قلت في هذا الكلام بالأمس . . . وأنت على خيرة واسعة في الحياة ، أليس كذلك ؟ »

« هل هذا يضحكك ! »
 « فعلاً . يتحدث في أحياناً أن أصبحك . وآمل ألا تخافي من تسوي العادة كما يفعل نيكولا . هل تعتبريني إنساناً غريباً ، يا لورا ؟ »

« مثل حصان القارن . »
 « الأسطورة أثرت فبك ، أليس كذلك ؟ يا إلهي . . . كم تحمزين بسهولة ! هل تعتبريني حقاً مثل حصان قارن ؟ »

عاد بيرغرين ولاحظ انزعاجها ، فقال مازحاً :

وللمرة الأولى تساءلت لورا ما إذا كان دومنيك همه أمر كليوباترا. إذ لاحظت أنه انزعج من ضجائها مع بيرغرين.
خلال الطريق، ظل صامتاً. السياء تليدت بالغيوم وهطل المطر.
وأدركت لورا عندما توقفت السيارة أمام المنزل، أن الربيع لم يصل بعد إلى
باليون.

« أيها الثعلب العجوز، هل تستطيع من غيابتنا لتوتر أعصاب الفتاة !
وتحن أيضاً لم نضئ وقتاً، اليس ما أقوله صحيحاً، يا كليوباترا ؟ »
قال دومنيك في لحظة أمرة :

« اعرجس . »
لم تنطق كليوباترا بكلمة واحدة، لكن ابتسامتها بدت واضحة.
راح دومنيك يجمع الأغراض ويضع ما تبقى من المأكولات داخل
السلة، معلناً انتهاء التزعة.
ولما حان الوقت للذهاب رفض بيرغرين اصطحاب نيكولا معه. ثم
نظر إلى الفتاتين في سخرية وقال :

« من منكما تأتي معي ؟ »
أكدت له لورا في جفاف أنها ترفض الذهاب معه، ثم أدارت له
ظهرها، فأعلن في الحال :

« لا تهربي يا عزيزتي بهذه السهولة، خاصة بعد لقائنا الحميم صباح
اليوم . »

حمل لورا بين ذراعيه ليرغمها بالقوة على أن تصعد في سيارته. فصرخ
دومنيك في عنف قائلاً :

« اتركها وابتعد عنها ! »
أطاع بيرغرين وقال :

« هل تتذكر المرة الأخيرة التي تشاجرنا فيها ؟ »
اكتفهر وجه دومنيك وقال :

« هل ستقلدني بحجر، كما فعل ثرويلوس ؟ »
شعر بيرغرين باضطراب وأخفض نظره، فاستعاد دومنيك وعيه
وقال :

« اصعدني، يا لورا . »
صرخت كليوباترا في سخرية :

« سأل معك، يا قارسي الباسل ! »
فقال دومنيك بعدما أقلعت السيارتان :

« يستحقان أن بقعا في الهاوية ! »

القصص

اليها، قائلة الوجه، تدخن وهي ممددة في كسل على سريرها، وكررت قولها ثانية :

« أنت تفضلين بيبي، اليس كذلك ؟ »

« في الحقيقة أشعر بارتياح كلياً وجدت نفسي مع بيبي. تصرفه الصياني أقل رعباً وأرهاباً... هذا كل ما في الأمر. »

« أرجو أن يكون ما تقولينه صحيحاً. لا تكذبي عليّ يا لورا، لأنني أعرف أشياء كثيرة عنه، هل فهمت ما أقصد ؟ »

ولورا التي اعتادت أن تعامل من قبل كليونترا كفتاة مسالمة، غير مؤذية، أو منافسة، فوجئت بكلام ابنة عمتها وراحت تفهقه وتقول :

« يا إلهي، أنت تغارين من دون شك ! »

انتفضت كليونترا في سريرها وقالت :

« نعم، ومهما يكن من أمر، فأنا لست معتادة أن أنقسم حب رجل مع امرأة أخرى ! »

أكدت لها لورا قائلة :

« صدقيني، يا كليونترا، أنا لا أريد أن أحظى بحبه ولا أنوي ذلك ابداً. صحيح أن بيبي يتمتع بجاذبية معينة، لكنني لا استحسن تصرفاته إطلاقاً. »

« إذن، قلبك يخفق لدومنيك ؟ »

« يا إلهي، ما بالك يا كليونترا. لماذا تصرين على أني متعلقة بأحدهما ؟ الاثنان مليتان عقداً ! يكفي ما سأواجهه من مشاكل إذا حاولت العيش في هذا المنزل بوجودهما... »

هدأت كليونترا وراحت تتأمل يانعيان ابنة خالها مدت لها يدا كسولة وشدت في مزاج على طرف فستان لورا وقالت :

« هذا الفستان يليق بك ومثل جسدك النحيل... وشعرك بدأ يتنضح أكثر... قال لي بيبي بعد ظهر اليوم ان النساء مثلك يوقظن لدى بعض الرجال حب العطف والوقاية. لا شك أنه يلمح بذلك الى دومنيك. والظاهر أن سيد المكان إذا أحب مثلك... لا تتخذي، يا حبيبي. إنه يشبه والده، لأنه يتمتع ببعض الهوس... »

٥ - طفل نائم... في قلبه.

وبعدما وضعت ليكولا في سريرها، توجهت لورا كالعادة الى غرفة ابنة عمتها لتفحصها بتقرير مفصل حول حالة الصبي وتطوراته وقالت :

« ليكولا نائم الآن. كان النهار مرهقاً بالنسبة إليه. »

كانت كليونترا تنتظر فرصة كهذه لتغضب وتقول :

« ليكولا ولد مزعج وأنت لا تفعلين شيئاً من أجل تحسين العلاقات بين وبين عمه دومنيك ! وأنت أيضاً، اعتقد أنك تفضلين بيرغرين ولا تحضرين أحاسيسك هذه. »

أصبح الحقد الذي يشعر به الولد تجاه عمه الكبير قضية مزعجة حقاً لكن هل يصح إجباره على محبة شخص ما خدعة لمصالح الغير ؟ حاولت لورا مرة أخرى أن تشرح هذا الأمر لابنة عمتها التي كانت قليلاً ما تصغر

للعقل. إنه يعتبر نفسه متمتعاً بروح القروسية، ويتكلم على خطأ إذا ذهب قلبك. »

هذه السخوية السهلة لم تعجب لورا التي قالت فوراً :
« لا يجب أن تهزأي بالروح القروسية التي يمتنع بها دوميتك. ألم يرهمن عنها عندما أراد في الماضي أن يستدرك الخطأ الذي ارتكبه ترويلوس فأصلحه؟ »

رفعت كليوباترا ابنة خالها بنظرة براقة ومرحة وقالت :
« الظاهر أنك على معرفة واسعة بالقضية الصغيرة التي حدثت في الماضي ! لم يبق دوميتك إلا يواجهه في أن يعترف بأنه. »
احتجبت لورا قائلة :

« لا تقولي ذلك مقنعة جداً بما أخبرك به ترويلوس. أنت تعرفين جيداً أن قصته خاطئة. »

لا شك أن احتجاج لورا قد فعل فعله في نفس كليوباترا التي لم تحاول الاستمرار في مناقشة الموضوع واكتفت بإطلاق زفرة صيقة. فسألتها لورا فجأة :

« كم سبق هنا في باتسيون ؟ »

« سابقى أنا قدر المستطاع. وبفضل بيرى لا أضجر هنا. وأنت ؟ هل أنت مشتاقة للعودة إلى غرفتك الحظيرة لأن لمجدي فرصة كهذه، يا لورا. هنا، لديك غرفة، وتاكسين. . . وطبعاً إذا استقرت أنا هنا بشكل نهائي، فسكونيين خبيطة غشني. »

« هل تتوين الاستقرار هنا مع بيرى ؟ »

« كلا، ليس مع بيرى. عليه أن يشعر قبل أن أقتنع به. لكنني أنوي استمالة عواطف السيد الكبير. صحيح أن بيرى يعجبني أكثر يوماً بعد يوم، لكن ماذا أستطيع أن أفعل. عندما يكون المرء في حالة المطالب، فلا يمكنه الاختيار ! »

ذهبت لورا هذه الواقعة المتطرفة وسألت :

« كيف بإمكانك تحمل الزواج من دوميتك وأنت تفضلين بيرى ولجيتي ؟ »

استنصت لها كليوباترا ابتسامة متساهلة. كم تبدو لورا فتاة صغيرة وغير ناضجة !

« إذا كنت الأمور كما أروغب، فلن أكون بحاجة إلى التدخل عن بيرى. . . آه، يا لورا، أرجوك، لا تنظري إلي كائناتة المصدومة ! أنت تعيظني في. . . »

صوت قرع على الباب جعل كليوباترا تتوقف عن الكلام في الحال، وقالت :

« نعم ؟ »

صرخ بيرغرين من وراء الباب :

« كليوباترا، هل ترتدين ملابسك ؟ »

« لا تدخل، انني برفقة لورا ! »

« البسي بسرعة، ستخرج في السماء. »

« اطفأ ! »

وما هي سوى لحظة حتى كانت كليوباترا خارج السرير فلمسكت يدها لورا وقالت :

« ساحتي يا عزيزتي. فما قلته حتى الآن فاعلمت نابعة وبما عن هراقي مع بيرى لدى عودتنا من التزهة. إنه يذكرني بتروي تماماً. هكذا كنت أعاركك معه بالطريقة نفسها، وذلك رغبة في التصالح من جديد. »

« ألبت تحبين بيرى، اليس كذلك. »

« كتبت كليوباترا بالضحك، ثم قالت :

« هيا، امخرجي الآن من غرفتي. على الأسراع بازدياد ملابسك وتزيين وجهي لأبدر جميلة كملكة. »

خرجت لورا من الغرفة ولم تفاجأ عندما رأت بيرغرين في آخر السلالم. فجمدت لورا مكانها وقال لها بلهجة ناعمة :

« لا تصرخي ! أخني الكبير قريب من هنا. فهو في مكتبه الآن. وهذه التزهة التالية جملة مترو الأضباب. وصباح اليوم كان السبب في مقاطعة عتائق. هل تذكرين ذلك ؟ »

أجابات لورا بحفاوة :

« اعتقد أنك تسألت ما فيه الكفاية، اليوم. »
« أجابها ساخراً :

« أنت تكثيرين عليّ من جديد، هل هذا يبدو ؟ »

ارتفع صوت دومتيك، الواصل من نفسه، في الممر قائلاً :

« أما زلت تلعب دورك الكرهية، يا بيري ؟ تعال الآن إلى هنا، أريد التحدث إليك. أما أنت، يا لورا، فاذهي إلى غرفة نيكولا، ربما احتاج إليك قبل أن يحين موعد العشاء. »

هذه اللهجة القاطعة جعلت الإحمرار يعلو وجه الفتاة، فدومتيك يعاملها كمتجرد خادمة. إنها تفضل وقاحة بيرغرين على هذا الاحترار. أغضقت لورا رأسها وراحت تتسلى السلام بحزن، بينما اخلق الشيطان باب المكتب وراءهما.

وبدأ دومتيك حديثه مع بيرغرين بعد أن سكب لنفسه كأساً وقال :

« اسكب لنفسك كأساً ودعنا نتحدث بهدوء. »

سكب بيرغرين كأساً له وجلس في زاوية المقعد وراح يحول نظره في الرفوف المليئة كتباً لا يقرأها أحد، لم يسبق له أن شعر بارتياح داخل هذه الغرفة التي أصبحت تلقائياً مخصصة لأخيه.

« بيري... أنا لا أريد الشجار معك... لكن يجب عليك أن ترى الفرق بين الانتصارات السهلة وبين الضيوف لدينا. »
« أنا لا أؤذي أحداً من مدعوينا، يا دومتيك. أما لورا، فلا شك أنها فرحة لأنني هنا اهتماماً. لكنها ليست تلك المرأة التي تجذب الرجال. »
سأل دومتيك بلهجة عادية :

« هل تعتقد أنك الرجل الذي تحلم به نبي فتاة صغيرة ؟ »

لا شك أن دومتيك يعرف أخاه تمام المعرفة ولم يكن في استطاعة بيرغرين إنكار ذلك، فأسرع بالاعتراف قائلاً :

« حسناً، حسناً. لقد تصرفت خطأ، ماذا تريد أن أفعل ؟ ميريام ولدت كثيراً خاصة نرويلوس وأنا. كان يجب عليك أن تتزوج. وهكذا يصبح في البيت امرأة، وبالتالي لنضطر إلى مراقبة تصرفاتنا. فتختلف الأمور كثيراً ودعنا نقوم الجيران بزيارتنا. »

ابتسم دومتيك غضباً عنه وملاً كأسه من جديد.

« صحيح أنني أهتمت وأجالي. كان يجب عليك أن تعيش حياة أكثر تطوراً. »

« وربما أصبح لدينا أرث. لكني ما زال هناك حظ يملك، يا دومتيك. أما إذا كنت مصراً على البقاء عازباً، فسيرث نيكولا ابن نرويلوس، سيادة بانسيون حلك. »

أجاب دومتيك حالاً :

« لن يعود الأمر كما هو الآن. »

« بل إنه المحقد الوحيد ومن السلالة نفسها. »

« دعنا من هذا الأمر الآن... في الوقت الحاضر، أود أن أتيتك إلى شيء واحد، لن استمع مطوّلاً بتصرفاتك الوقحة والذليلة تجاه ضيفتنا الصغيرة. »

كان صوت دومتيك مهدداً وفي عينه الزرقاوين جديد.

أضاف قائلاً :

« هل فهمت كلامي جيداً ؟ »

« هذه الفتاة تروكظ لديك عزيزة الأوبة. لقد سبق أن قلت هذا الكلام لتكليوباترا بعد ظهر اليوم وهذا لم يحجبها قطعياً. »

وظهر بريق فرح وأعجاب في نظرات بيرغرين. إذ انفتحت أمامه افاتاً جديدة لتسلية جمة.

قال دومتيك في خبط وهو يرمي حطية في النار :

« دعني من تفاصيلك ! فهمت ؟ »

فرح بيرغرين لأنه نجح في مشاركة أعصاب أخيه وقال :

« لا تقلقي، لا يجب على تعجتك أن تخاف مني، ما دامت الأمثلة جميلة هنا. أه، كليوباترا هي فعلاً امرأة رائعة ! وحتى معك، ما رأيك ؟ عر لي، يا دومتيك، ألم تفكر في اغراء أرملة أخيك ؟ »

ذغب بيرغرين بعيداً في حديثه، وأشارت الغضب عذات تحتل وجه دومتيك من جديد. فرقع نحو أخيه معصبه وبه في شدة :

« أعرف أنك تتسلل في اغصاني. حذار يا بيري، فأنت لم تعد طفلاً. »

وتفكك سخرية ! أنا شمت لميتك وتصرفك المقيت . لقد عشت حياة سهلة حتى الآن .

« سهلة جداً ! أنا الذي أنزف دماً وعرقاً كل يوم في غيار القلوع ! »
« لا تبالغ . لا أنت ولا تروي عرفاً فعبلاً معنى الأعداء القاسية التي يقوم بها العمال . كان يجب على والدنا أن يلتصقاً كما لفتني . معني المعاناة وفسوة العمل والسؤاوية . لو فعل ذلك لرما أصبحت اليوم انساناً ناضجاً ومتعباً ! لم نتم في جذية مؤسستنا كما يجب . »

« ولماذا أفضل ذلك ؟ أنت هو البوريت الوحيد للمؤسسة ! »
« أعرف أن ذلك يجرع شعورك . غير أني المسؤول الوحيد . ألا يكتفك المعاش المرتفع الذي يتقاضاه كل شهر لقاء عملك . لماذا تريد أكثر من ذلك ؟ هل نسيت كم مرة دفعت عليك ديونك ؟ ليس لديك من سبب للشكوى أو التذمر . »

« بما أنك ضمنت اليك حصة تروي . فإمكالك أن يكون أكثر سخاء . »

« تروي ترك ابنه . هل نسيت ذلك ؟ »

« هل قررت إذن أن نتم بالصبي ؟ ستفرح والدته بالأمر . لكن للأسف . لم يستطع نيكولا . »

قال دوميتك في مرارة :
« أنني أخيف الصغار . على ما اعتقد . »

وفي هذه اللحظة انفتح الباب وصرخت كليوباترا باستغراب :
« أنت هنا ! وفي هذا الوقت أنا جالسة وحدي في قاعة الاستقبال أملئ حتى الموت . »

وفي فضول راحت تشأمل الرجلين . حول ماذا كانا يتكلمان . يا ترى ؟ فقال :

« من الذي يخافك يا دوميتك ؟ هل هو ابني . تصدرف معك مرة أخرى في حماقة . أم أن الموضوع يتعلق بلورا ؟ قالت لي الآن أنك طردتها بعنف وقساوة . »

« نعم . . . صحيح هذا الكلام . »

كانت لهجة تحثري على ندم واضح .
« إذن . ستصالحان الآن . وهذا هي على عتبة الباب . »

كانت لورا تلتف على عتبة الباب . تتردد في الدخول . فقالت لها كليوباترا بوقاحة :

« ادخلي . يا حبيبي . لن يأكلك سيد المكان . »

تقدمت لورا بنزع خطوات من دون أن تنظر إلى دوميتك . كانت تبدو غلامع فتاة صغيرة . في ثورتها المكسرة وعقدة شعرها الناعم . ظهر على وجه سيد بالسيون بريق حنان ناعم . فقال مقترحاً :

« دعونا نذهب إلى قاعة الاستقبال . »

ارتاحت لورا لأن دوميتك لم يعتبر أنه من الضروري أن يمشي لها عن تلمعه الغاضبة .

وفي هذا المساء . اختلعت ميريام عن عدم امكانها تحضير عشاء ملائم سبب نزعة الهواء العلق . فأمرع بيرغرين في مقادير الطاولات وقال :

« كليوباترا . تعالي . ستجد عشاء أفضل في ميرينورث . هل يريد أحد مرافقتنا ؟ دوميتك . تفضل الاستحمام الى مكتبك . على ما اعتقد . وأنت . يا لورا ؟ »

ترددت لورا قليلاً . من جهة لا تريد تكبير الجُر على ابنة عمها وبيرغرين . فلن تساعها كليوباترا إذا قبلت دعوته . وفي جهة أخرى . فهي حذرة من البقاء وحدها مع دوميتك القائم الحزين . نهض دوميتك هائساً بأعذار غامضة . فقد هان يائسالي على لورا الاختيار . فقررت البقاء في بالسيون .

ران صمت ثقيل فجأة على المنزل . وتدمت لورا لانها لم تجلب من غرفة المكتب كتاباً مطالعة في هذا الوقت الفراغ . في الوقت الحاضرة لا تحرق على الدخول ما دام دوميتك قد اقتحم المكان قبلها . لذلك قرأت أن تنفذ نيكولا والنوم باكراً .

توقفت في البهو لتدأب روبي . كبير الكلاب . ولما نهضت واقفة . رأيت دوميتك أمام عتبة باب غرفة المطالعة .

« روبي يجيك كثيراً . يا لهذا القلب المعجوز المسكين . انه لا شك

بحاجة إلى عاطفة وحزن مثلاً جميعاً .

« هل تتفحص العاطفة والحنان ؟ »

« آه ! ... الظاهر أنه لا يتفحص الإنسان ما لم يحصل عليه إهداء، لكن هذا خطأ، ما رأيك أنت ؟ »

« حتى يحصل المرء على شيء ما، يجب أن يعطي شيئاً بالمقابل . »
« صحيح . يا آنسة سميت . »

« يشعر الواحد عندما يعيش هنا في يانسيون، أنه منزل للرجال، هذا واضح تماماً . ألا تتذكرى والدتك ؟ »

« بل . أتذكرها جيداً . كان عمري ثمانية أعوام عندما توفيت . »
« تباركاً فاجدة لها تعجب الآن تصرف دومينك الغرب أحياناً . وراحت تتخيل ذلك الولد الذي يتفحص الحب والذي تزرع خلافاً عن أخيه لأنه البكر . »

« تجوزات في سؤاله . »

« كيف كانت والدتك ؟ ألم يعرفها أخواتك ؟ »

« كلا . لأنها ماتت لدى ولادة بيرغرين . وتروي لم يكن يبلغ من العمر إلا ثلاث سنوات . سأحدثك عنها يوماً ما . . . هل أنت ذائعة في فراشك ؟ »

« نعم . لكن عليّ أن أرى نيكولا قبل ذلك . أحب أن أراه دائماً . »
« طلب دومينك منها إذا كانت تسمح له في مرافقتها، فالتدعشت ووضعت في حبلب . »

« عادة، لا يستيقظ . يكفي ألا نقوم بأي ضجة . وهذا المساء كان حزيناً للغاية . »

« أنت أيضاً تبدين متعبة . نزهتنا لم تكن ناجحة . »

« ضوء شبح كان مشتتاً قرب سرير نيكولا . راحت لورا ووضعت بتأملان العصي النائم . ولاحظت لورا أن ملامح دومينك حزينة واليد هل يامل في منح نيكولا الحنان الذي لم يعرفه ؟ »

« حسرت تقول . »

« أنه يشبهك . »

« تغلب العصي في يومه، فرجع دومينك يعتف إلى الوراء خوفاً من انخافه الولد فيما لو استيقظ . اتحت لورا فوق العصي وراحت تمس بكلمات مريحة . فجأة فتح نيكولا عينيه وقال قرحاً : »

« موموا . »

« وجون لمح الشبح الطويل في الظلام مائل : »
« من هذا ؟ »

« أنه حمتك دومينك . جاء ليرتقى لك ليلة سعيدة . »
« كانت تأمل ألا يبدأ نيكولا بالصراخ . واقرب دومينك ويجلس على طرف السرير قائلاً : »

« هل تعرف أنني عندما كنت صغيراً، كنت أنام مكانك ؟ »
« دعش الولد وقال : »

« كنت أنام هنا في هذا السرير ؟ »

« لم يرفض وجود دومينك كالعادة . هل لأنه لم يستيقظ لماماً ؟ أم أنه اكتشفه في منظر آخر وهو يتخيل حياً صغيراً ؟ »
« راح دومينك يلمس شعر العصي ويقول : »

« نعم . وهذا الحصان ملكي . »

« كنت شغطيه، يا عمي ؟ »

« انحلت لورا تضجك بالرغم منها وهي تتصور دومينك فوق هذا الحصان المزاول . تقلدها نيكولا وقال دومينك : »

« لاشيء يضحك في الأمر . في ذلك الوقت كنت فارساً قوياً، صدقني . »
« وفي أحد الأيام سقطت على الفسلة وكسرت أحد الأياويق خلسة . »

« هل وضحك مررتك ؟ »

« لم يكن لي مربية . لكن والذي لم تكن توبخي . »

« نعم وجه العصي وقال : »

« حطكت كبير يا عمي . غالباً ما لغضب كليوباترا مني . »

« ليست الغلطة دائماً غلطتها، أليس كذلك ؟ لماذا لا تدعوها «ماما» ؟ »

« هي لا تريد ذلك . »

« هل تعرف لماذا؟ »

أجاب الولد بلا مبالاة :

« كلا. أريد منك يا عمي دومنيك أن تخبرني قصة. »

« يجب أن تطلب ذلك من مومي. »

« كلا. أنت، اخبرني قصة، أروك. »

كان الولد مصراً فرمقت لورا دومنيك بإشارة تشجيع. وفي لحظة مترددة، بدأ يخبره قصة الحوريات. كان الدور جديداً بالنسبة إليه، فكان يشعر بالانزعاج، لكن الولد ظل يحدق فيه بعينين ساحرتين، مما جعل دومنيك يتصل بالثقة والعفوية. وبعد قليل تغلب على نيكولا التماس، فلفظ في نوم هين.

وضع دومنيك عليه الغطاء وطبع على خده قبله وخرج من الغرفة وراء لورا.

قالت وهي ترمقه بنظرة برّاقة :

« هل رأيت! لقد تصرفت كما يجب! »

« كان يبدو سعيداً ومتحمساً، لكن فجأة عاد الحزن يغمر قلبه فقال : « أنا متأكد من أن سأفقدك يوماً ما ربحته الآن. من السهل أن أتوصل يوماً إلى منافسة ييري. »

« لا تبال به! إنه يبحث صعباً أن يعد نيكولا عنك. »

« أعرف ذلك جيداً. لكنني كنت أجهل أنك لاحظت ذلك. »

قالت في خفية أمل :

« صحيح، يا دومنيك؟ لقد أبدت رأيي بأخيك بسرّ وأروك الآن تلقى عليّ. أنا متأكد أنك لا تتقن تمام الثقة. »

حدق بها في نظرات حائرة. فظهرت جمجمة قلقة على جبينه وقال :

« ربما قدرتك بأقل من الحقيقة. لكن، يا لورا، إذا تكلمت معك بقسوة بعد ظهر اليوم، فلا يجب أن تعتقني أن... »

قاطعت لورا بإسماة لطيفة وقالت :

« لا اعتقد شيئاً، يا دومنيك. لكن ينهني... إلى أهلك أكثر الآن. »

كما كنت عليه قبل هذا الحديث. »

« حسناً يا لورا، وفي المرة المقبلة عندما أنصرف برحوة، فلا تتقدمي في تقليم أشجار ييري. نصحين على غيري. »

احتضى من دون أن يتسلى للورا أن تود عليه التحية. فتوجهت إلى غرفتها في الحال.

كانت تحفّات دومنيك ثابتة. ومنذ صباح اليوم التالي، لم يبق أي أثر للنصر الصغير الذي حققه دومنيك تجاه نيكولا. وبيورغين يقوم بكل ما في وسعه ليبقي العصي من جهته. ففكرت لورا أن تحدث كليوباترا بهذا الأمر.

« يجب أن تطلعي من ييري ألا يعرف أن أعاء بشكل مستمر. »

« ماذا تقصدين بذلك؟ نيكولا يفضل ييري لأنه يشبه والده. »

« ألا تودين أن تحسّن العلاقات بين نيكولا ودومنيك؟ والطريقة الوحيدة لتحقيق ذلك هي التحدث إلى بيورغين في الأمر. »

« في الحقيقة، ليس لهذا الأمر أهمية كبرى كما كنت أتصور من قبل. دومنيك رجل عاقل ويجب الاعتراف بمزاياه العديدة. ونصرف نيكولا تجاه دومنيك لن يؤثر على القرار الذي سيخذه سيد المكان تجاه العني... كانت على حق. وبالرغم من حقد نيكولا على دومنيك، فالعني فرح ومسرور بوجوده في بانسيون. ولا يخفي الإعلان بشعر واعتزاز أن المنزل هنا منزله. وأنه سيظل فيه إلى الأبد. ولورا نفسها بدأت تشعر بهتان تجاه بانسيون، الذي بدأ للمهلة الأولى غريباً وغير اليق. لكن، إذا كان نيكولا حذر ودواعي للاعتقاد بأن بانسيون مسكت الوحيد والأبدي، فالأمر مختلف بالنسبة إلى لورا، التي يجب عليها المحافظة على عدم التعلق بانسيون كثيراً. وبعد بضعة أسابيع، لن تعود كليوباترا في حاجة إليها وسيصبح المنزل وسكانه بالنسبة إلى لورا ذكريات ماضية. »

وفوجئت لورا بالفكر في احتقار وقرم يحمل الأزهار وغرفتها الصغيرة. لن تتحمل فكرة العودة إلى هناك. تأمل مثل صديقاتها أن تزدهر وتتفتح في الحياة عن طريق الزواج أو الوظيفة.

وفكرت لورا بصوت مرتفع كعادتها :

« ربما، من السهل معرفة الشوة وفرح القلب، ما دمت وحيدة؟ »

سمعت أصواتاً خلفها في ساحة بالنسيون حيث كانت جالسة تتمتع
بشمس نيسان. واعتقدت أن ميريام هي القادمة. لكنها سمعت صوت
دومنيك يقول :

« هل اكتشفت هذه الحديقة لتوك؟ »

تلعثمت وقالت :

« عدت باكراً، اليوم. »

« ذهبت لشراء بعض الأشياء ولا داعي للعودة الى المقنع قبل الغداء.
لماذا تشعرين بانزعاج وعدم ارتياح كلما كنت معي يا لورا؟ »

لم تجرؤ على مجابهة نظرتها، وكى تراوغه، قطفت بعض العشب. لم
يسبق أن أزعجها أحد، ما عدا ميريام، في هذه الزاوية المعتادة حيث تأتي
لتحلل وتدع تخيلتها تشرد. جلس دومنيك قربها وكشفه التي لامست كتفها
تسهرها بنوع من التوتر الحميم.

صرخت في صدق وتهذيب :

« لا أعرف. »

هذه العفوية جعلته يتسهم فقال :

« أنت تنفاسين مع نيكولا عدم الثقة أم الخدو؟ »

رفعت عينيها نحوه في سرعة وصرخت في حدة عنيفة :

« كلا، ثقتي بك كبيرة وبامكاني أن أضع حياتي بين يديك من دون أي
تردد. »

« يا لهذا التملق والاطراء! »

فهقبت لورا وقالت :

« قلت أموراً تافهة، أليس كذلك؟ اتكلم مثل بطلة قصة بالية... »

وأنت تكلمتي غالباً كما تكلم نيكولا. هذا هو الذي يزعجني في الأمر. »

« بما ألي غير معتاد على معاشرة النساء واستضافتهن في منزلي لذلك

لست قادراً على صياغة فن الحديث. »

وكان دومنيك مترعجاً ومتوتراً يعيث بشعره وهو يتألم.

فقال لورا :

« أنت لا تعامل كليوباترا كما تعاملني. »

« لست في حاجة لأن أنصرف بشأن معها. رقتي ما كنت تقولين عندما
وصلت. »

« كنت أقول إن النشوة وفرح القلب لا يعرفها الانسان الوحيد. »

« أنا لست الانسان الذي يوحى بالعاطفة. »

صرخت لورا قائلة :

« لا يجب أن تفسد حياتك من أجل الماضي! »

ندمت على ما قالته. وغابت الابتسامة عن وجه دومنيك الذي قال :

« أنت اذن على علم بما حدث في الماضي! أفضل يا آنسة سبب الأ

تدخل في شؤوني. »

بقيت مذعورة، محمرة الخدين من الحجل. ووقف دومنيك تاركاً أياها

من دون أن تنبس بكلمة.

بعد هذا الحادث بدأت لورا تتحاشى الوجود معه. وذات يوم قالت

لميريام :

« لا أعرف كيف أنصرف مع دومنيك. في داخله رجلاًن. »

« أنت قلقة على مصير نيكولا، اليس كذلك؟ »

مشاكل آل تريفاين بدأت تزعجها، لكن بما أن الفرصة مناسبة قررت

لورا أن تتدخل من أجل الولد، إذ لا يجب إهمال تأثير ميريام على أهل

المنزل. فقالت :

« ألا تعتقدين أن لنيكولا حقوقه الشرعية؟ »

« بكل تأكيد. انه ابن تروي والعجوز زكاري كان يريد حفيداً

بأصرار... »

ارتفع صوت وراءهما، وقال دومنيك في جفاف :

« من الأفضل أن تناقشا مصير نيكولا معي. »

دافعت لورا عن نفسها قائلة :

« كنت اكتفي بالقول إن نيكولا يحمل اسم عائلة تريفاين وأنه آخر

انساب العائلة. »

« صحيح، لكن لا تنسي أنه باستطاعتي أن أتزوج يوماً ما. »

« طبعاً... اي... اي... »

ابتسم وقال :

« هل طلبت منك كليوباترا أن تفتحي هذا الموضوع مع ميريام ؟ »
غضبت لورا فجأة ونظرت إليه في وقاحة وقالت :
« أبداً ! إنها لا تحتاج لمن يتحدث عنها . »
قال ساخراً :

« آه انني اصدقك تماماً ! »

النهاية

٦- الأحلام لا تضر أحداً !

عاد دومنيك ليفتح الموضوع نفسه في المساء . كانت كليوباترا قد رافقت بيريزين كالعادة في سهرة في ميرينبورث ووجدت لورا نفسها وحيدة مع دومنيك . تناول طعام العشاء كالعادة بسرعة وانتظرت لورا منه أن يقادر الطاولة من دون الاهتمام بها . لكنه لم يفعل ما كانت تتوقعه ، إنما أبعد كرسيه قليلاً إلى الوراء ليجلس في ارتياح وراح يراقب الفتاة بصمت ثم قال فجأة :

« ألا تحبين أن ينظر المرء إليك بينما تأكلين ؟ »
« كلا . لا أحب ذلك . إذ أشعر باضطراب وتوتر . »
« يخيل لي أني أثير توترك في صورة دائمة . »
رمقته لورا بنظرة استغراب وأجابته بصديق :

« فقلّج أشعر أحياناً بالتوتر معك . »

« ولا تشعرين بذلك مع أخي سري ؟ »

« كلا ، لأنّ لا أخاف أن أصدّه وأعيدّه إلى مكانه . »

« ومعني ، لا تجرّوين على ذلك ؟ هل هذا بسبب كبر سري ؟ »

« أبدأ ! لست مسأً في الخامسة والثلاثين من العمر ! »

« لا ، طبعاً . لكن فارق خمس عشرة سنة بيننا . »

« بيننا ! وأي أهمية لذلك ؟ »

« لا أحد يعرف . ربما . . . »

« فوجئت بهذا الرد وقالت :

« العمر لا يلعب دوراً هنا . »

« أين ؟ »

« عندما أشعر بالانزعاج كلّما وجدت نفسي معك . . . إنك تفعل كل

ما في وسعك لتشوش عقلي ، يا دومينك ! »

ارتسمت على وجه دومينك ابتسامة ساخرة تشبه ابتسامة بيريطرين هذا

لا شك فيه . . . قليل عشر سنوات لا شك أنه كان يشبه تمام الشبه .

« همت لورا بتوتر بسيط :

« أرجو ألاّ تغرم نفسك على البقاء معي . أعرف جيداً أنك مشغول في

الساد . »

« لن تتعبين بسهولة مني . لذي حديث معك . أرجو أن تسرعني في إنهاء

طعامك . »

تناولت ملعقتها بينا كان دومينك يتمايل على كرسيه متأرجحاً ثم سألتها

قجاةً :

« هل انتهيت ؟ »

ومن دون أن ينتظر منها جواباً ، نهضت ، فتبعته لورا إلى البهو المضاء

بضوء شحيح يكشف فقط عن شمال حصان الفازن .

قال دومينك :

« إن حصان الفازن هذا يشتك ، كما هي الحال مع ابن أخي ، نيكولا .

هيا ، اتبعيني إلى المكتب . »

« عليّ أن أرى نيكولا ، الآن . »

« كلام تافه ! إنه ينام من زمان . هل تخافين مني ؟ »

أسرعت في الدفاع عن نفسها قائلة :

« ماذا تتصور ؟ »

ابتسم دومينك ابتسامة واسعة ودخل غرفة المطالعة فصعته لورا . كانت

تار المدفأة تشعّر جواً حياً ، فقهق توترها في الحال . وقالت باستغراب :

« أه ، هنا أيضاً شمال الحصان الفازن . لم لاحظته من قبل . »

« إجلسي ، يا لورا ، أريد أن أحدثك عن ابن أخي نيكولا . »

جلست لورا على كرسي قرب المدفأة وانتظرت . ولما لم يقرّر البدء

بالحديث بأدبرته بقولها :

« ماذا تريد أن تعرف ؟ لا شك أن نيكولا صبي لطيف جداً . ومع الوقت ،

ستعجب بكل تأكيد على . . . على الحجل الذي توشي له به . »

أجاب موافقاً بسخرية وهو يجلس على الكرسي وراء مكتبه :

« يا لهذا الكلام المتشوّ ! وما تسمينه حجباً ، يبدو لي أنه واضح صريح .

لكن في كل حال ، لا يمكننا أن نفعل شيئاً بهذا الصدد . فما هي واجباتي

حسب رأيك ؟ »

اندحشت لورا قائلة :

« هل تطلب رأيي أنا ؟ »

« هل ترفضين أن تسميري عن رأيك مع أنك تطرحينه على ميريام بكل

طيرة خاطرة ؟ »

قالت باحتجاج :

« رأيي . لا أثر له ! يجب أن تناقش هذا الموضوع مع كليوباترا . »

« سأتناقش معها أيضاً . والأنا ، يا لورا ، تدفينني إلى الرجاء . صباح

اليوم كنت تقولين إن عائتي لها واجبات نحو ابن تروي ؟ »

« ألا توافق على ذلك ؟ »

« بل ، طبعاً . حاولت أن أعيد العلاقات بيني وبين تروي بعد وفاة

والدنا ، لكنه كان غريباً وحقوقاً مثل والدي . لو كنا نعرف أن تروي أنجب

ولداً لتغيّرت الأوضاع جذرياً ، إذن ما هي واجباتي ، حسب رأيك . »

لرؤيت لورا مطوَّلاً في الرَّد: كانت جالسة على كرسي، مفقودة
الذراعين فوق ركبتيها، وتبدو كتلميذة مدرسة. ودومنيك يتأملها في
حنا.

« لا أعرف ما أقوله. اني... اني اعتقد أنَّ لديك مسؤوليّة تجاه نيكولا
بعد موت والده. من الصعب على امرأة شابة أن تربي ابنها وحيدة. »
« ان ابنه عمك امرأة جلدية جداً، ولن تبقى وحيدة معزولة،
عازمت لورا في صوت ناعم. »

« العصي يمكنه أن يعرقل لها أمر زواجها ثانية. »
« هل تعتقدين أنه إذا أمّت مستقبلاً لنيكولا، فاني بالثاني أسهل عليها
الزواج من جديد؟ »

« وبالتالي لن يكون لديها شيء يطلبه من رجل آخر. »
صرخ دومنيك بعنف مفاجئ، وقال بغضب :
« أتينا... خططنا كل شيء. »

وفي طريقة آية، أخفى دومنيك يده الكدمة على وجهه، فشعرت لورا
نحوه بقليل من الشفقة وقالت :
« لا تبالِ جداً بالكدمة في وجهك، يا دومنيك، لا أحد يلاحظها. »

أكد في حزن :
« ما عدا نيكولا. »
ابعد يده واستراح في مقعده فقالت :

« في البداية، لا شك أنه دُعي لوحيد الكدمة. لكن الآن، يعتقد أنك
قرصان وأن قرصاناً آخر قد حاجلك. »
فهمه دومنيك وقال :

« أه يا لورا، أيتها الفتاة الصغيرة، ان معجب بقصصك مثل نيكولا
أخشى أن تكون قد اخترعت هذه القصة ألت بالذات، القراصنة، ولتال
حصان القارن... مشدو في باتسيون فارقة عندما تغادرتيها. »

هذه الملاحظة الأخيرة أعادت الحزن إلى وجهها. كانت تحاول جاهداً
منذ وقت غير قليل ألا تفكر في الغد. غير أنها كانت تعرف أنَّ عليها العودة
إلى لندن متى تنظمت قضايا كليوباترا. كما كانت تعرف أيضاً أنها لا تشعر

برغبة في الرحيل من هنا.
أصر دومنيك قائلاً :

« يبدو لي أنك لا تصدقيني. »

انحنى لتحاول معرفة تعبير وجهه في الظلام حيث لجأ.

فاخترت له بحزن :

« أنا الذي سيحُن إلى باتسيون. »

« إذن بدأت تتعودين على تصرفاتك الموحشة والوحشية يا لورا ؟ انني آمل

أن أروي نيكولا هنا. »

فتحت لورا جيبها باندعاش وقالت :

« هذا رائع. نيكولا يحب باتسيون. لكن... كيف مستدير الأمر ؟ هل

تتوي تينه ؟ »

« لا... لديه أم وهناك وسائل أخرى. »

أحت لورا رأسها فتكرّمه الوسائل. الزواج ؟ هل ينوي الزواج من
كليوباترا. لم تكن ترى إمكانية أخرى ؟ دومنيك الجالس وراء مكتبه مثل
استاذ مدرسة أخذ يراقب يدّه قلها. وفجأة شعرت لورا بحزن عميق
يجتليها. وقالت بصوت متعب :

« سبق إذن أن وضعت مخططاتك... »

لماذا كان مقتنعاً بوجوب استشارتها ؟ ان آل تريفان ليسوا بالأشخاص
الذين يأخذون بنصائح الغير قبل التوصل إلى قرار نهائي.
وافق دومنيك على ما قالته.

« إذن متعلق ما سبق أن خططت له، وولمي لا فائدة له. »

شعر بخيبة أمل لسماع هذه الكلمات وفي الوقت نفسه تقلص وجهه
القاتم، يا لمواجه المتطلب. صحيح أنه مزودج الشخصية ولن تعجز أبداً
تقليبات مزاجه العنيفة.

حسنت تقول :

« سأذهب إلى فراشي. »

لم يحاول استبعادها وفتح لها ليلة سعيدة بلا مبالاة. غير أنه أضاف عندما
تأملت كتاباً عن الرف في طريقها إلى غرفتها :

« أنت تحبين المطالعة ، أليس كذلك ؟ باستطاعتك أن تأتي إلى غرفة المطالعة في أي وقت تريدن وغدني الكتاب الذي يعجبك . »
« شكراً . وحتى لا أزعجك ، فلن أدخل المكتب في المساء . »
« أنت لا ترجعين أبداً ، سأبوح لك بسر . نادراً ما أعمل في المساء . وفي معظم الأحيان ، أفك رعدة عتي وأصفح الأليومات العائنة إلى أيام طفولتي . وفي إمكانك الانضمام إلي إذا أردت . »
كانت لورا قد فتحت الباب للخروج وقبل أن ينسحب لها الوقت لرد عليه ، دخل بيرغرين وكليوباترا في ضجة إلى اليوم . شاهدت كليوباترا لورا واقفة على عتبة المكتبة فسألها :
« هل ما زال دوميك هنا ؟ »
ثم دخلت من لقاها نفسها إلى المكتب وقالت :
« أه ، نعم ، أنت هنا ! لقد أمضيتنا سهرة رائعة في إحدى الحفلات الصغيرة الواقعة على شاطئ البحر ، برفقة البحارة الذين يضعون الحلق في أذانهم . لورافقتنا لورا لتخيلت نفسها موجهة بين أعزائها المرافسة . يجب أن نصلحها معنا في إحدى الأسابيع ، يا بيرغرين . »
« ليس وادراً أن تأتي لورا مشكراً ، هل سمعتي ، يا بيرغرين ؟ »
كان دوميك قد انتصب واقفاً وتكلم بلهجة قاطعة . اكفى بيرغرين بالانضمام . ففالت كليوباترا في سخرية :
« ولبي ضروري ذلك ؟ لماذا نجني ابنة خالي ، بيتا تدعي لنا كذهب حيثما أشاء ؟ »
وفي هذه اللحظة بالذات بدأ وانحسراً لكليوباترا أنها قادرة على جلب الرجل الواقف أمامها . عيناها الرافقان وشفتاه الرقيقتان تشكلان دعوى مطمرة لأحفظها دوميك كلياً . ولاحقت لورا لهيته فقال دوميك موجهها حديثه إلى كليوباترا :
« أنت من طيبة آل تريفاين نفسها . »
« طبعاً ، فأنا من عائلة تريفاين ، لكنني زوجة ترويلوس ، شئت أم أبيت . »
تابع بيرغرين هذا الحديث من دون أن يتلفظ بكلمة . لكن فجأة بدأ في

المحجوم وقال :
« وأنت ، يا أمي العزيزة ، لم تضيق وقتك سدى ، أنت أيضاً ! هل كانت لورا العائنة تساعدك في عملك ؟ »
أسرعت لورا في القول لتوقف كل التلميحات :
« كنت في صدد الذهاب إلى قراشي . »
أجابت كليوباترا بسخرية :
« وجه لورا الصغيرة مشح بعد هذه السهرة التي قضتها برفقة السيد الكبير . هل وصلنا في الوقت غير المناسب ، يا حبيبي ؟ »
قال دوميك مازحاً :
« لم تستحسن ابنة خالك الشرف الذي أكتنه لها . كانت في عجلة للذهاب إلى النوم . . . ولماذا لا تتناول كأساً ؟ »
فالت كليوباترا وهي تجلس في المقعد حيث كانت تجلس لورا منذ قليل :
« بكل طيبة خاطر . أه ، هل ستدعين حقاً إلى فراشك ، يا لورا ؟ »
« نعم . إلي أموت تلعماً . »
لم تكن ترغب في حضور العراك العاصي للأعوين . لما توارت لورا عن الأنظار ، لحق بها بيرغرين . وفوجئت هي كيف تستسلم لعناق . صحيح أنه لم يجذبا كثيراً بل كانت تشعر بفصول غريب لداعبات الحب . قال لها بعددأ أبعداً عنه :
« والأنا . هل غيرت عواطفك تجاهي ، أم أن السيد الكبير قد لفكك للدوس المطلوب . »
« دوميك لا ينسب في عناق أي كان من أجل قتل الوقت ، يجب عليك أن تعرف ذلك تماماً ! والأنا دعني أذهب إلى قراشي ! »
« هل تجيب أمك ؟ هذا واضح جلي . »
ثم عاد إلى غرفة المطالعة .
لا شك أن بيرغرين على حق . عندما كانت لورا تتناقش مع دوميك لم تكن تعي رغبتها له . والغريب في الأمر هو أنها عندما استسلمت لعناق بيرغرين ، اكتشفت قوة عاطفتها وحبيها لأخي . . .

وظلت لورا التعبة ممتدة في سريرها وقتاً طويلاً والأشقة لم تبارح عيها. الأحلام لا تضر ما دامت لا تحتاج الحياة الواقعية. هذا ما كانت عمتها فلورا ترفقه عليها. انها تشعر بحرية عندما تأخذها حيلتها الى قصص القراصنة الغريبة. لكن إياها واختلاجات القلب ! ستكون حل خطأ إذا وهبت قلبها لأحدهما.

وفي صباح اليوم التالي، عندما حملت لورا صبيحة التطور إلى غرفة كليبواترا لتخلف عن ميريام، كانت كليبواترا في انتظارها بفارغ الصبر :
« إذن، أخبريني ما حدث بينك وبين دوميتك، مساء أمس. »
أجاب لورا في هدوء :

« لا شيء. حدثني عن نيكولا. »

تغير تعبير وجه كليبواترا في الحال ولم تعد تريد مناقشة ابنة خالها، فسألتها بالخاح :

« ماذا جرى من حديث ؟ »

« لماذا لا تناقشين قضايك معه ؟ »

أعلنت بفخر واعتزاز :

« لأنني أكثر ذكاء معه. أودعه يقوم بالخطوات الأولى. »

« اعتقد أنه وصل إلى قراره النهائي. »

« وما هو هذا القرار ؟ »

وبدلاً من إرضاء فضول ابنة عمتها القوي، توجهت لورا نحو الثالثة. كل صباح كانت تبحث عن تطورات الربيع، كما علمتها ميريام. لقد بدأت التناقص وبعض الأزهار الوردية نبتت ولذلك تفضل لورا أن تبقى في بانسيون حتى فصل الصيف لتشاهد تفتح وإزدهار الطبيعة كلها.

« لورا ! ما زلت تعلمين ! ماذا قال لك دوميتك ؟ هل متحبين على أمتلئي، أخبري ؟ »

« انه يتنى أن ينام نيكولا ويترعرع هنا. وقال لي لديه مشاريع هذا الصدد. هذا كل ما قاله. »

« أي مشاريع ؟ لورا، أنا أعجبه أنك استطعت أن تتزعم منه تفاصيل

أكثر... »

« ليس هذا من شأني. »

صارت كليبواترا عالياً :

« صحيح، أنت تثيرين جنوني ! كيف يمكن لأحد أن يكون في مثل

حالتك ؟ الرجل المسكين لا شك أنه أراد أن تعلميه برغبات. كان عليك

أن تلجحي له بأبي مهتمة باقتراحاته ! »

في مزيج من توتر وسخرية كانت كليبواترا تريد تحريض لورا التي بقيت

حاملة لا تبالي. فأضافت المرأة قائلة :

« بدأت أصدق أنه كان يبحث عن صحة لقطاء بعض الوقت معك.

هل يعانق جيداً ؟ »

أحمر وجه لورا في الحال واجابت :

« لا أعرف ! »

« آه، لقد أصبت المهدف جيداً ! دوميتك هو أحد أنواع الرجال الذين

يوظفون العواطف في قلب العذارى. »

وفي عقل لورا اندمجت العلاقة بين الخصان والفتاة العذراء، فزاد احمرار

وجها وراحت كليبواترا تبرا قائلة :

« لا تأثري. يا حبيبي. ربما سأكون أنا بحاجة إلى الاخ الكبير. ألم

تفكري أن من المحتمل أن يكون لديه مطامع بي ؟ وستستفيد معاً بهذا

التدابير، فهو في حاجة إلى زوجة وأنا في حاجة إلى أب ليكولا. »

وفي صمت استقبلت لورا هذا التصريح. وانكمشت على نفسها

ودخلت إلى عالمها الداخلي، كما يحدث كلما جرحتها الحقيقة. وبعد بركة

من الوقت سيطرت على التطورات وشعرت برغبة حادة في فهم موقف ابنة

عمتها، فهست تقول :

« كليبواترا، كنت اعتقد أن يري وأنت... »

انقضت كليبواترا متزعجة من هذا الحديث وقالت :

« كلني مناقشة هذا الكلام لن يفيدنا كثيراً. هل تعرفين أن يري ميل

إلى خوض مغامرة السفر والذهاب إلى استراليا، كما فعل تروي ؟ استراليا

بلازم جذابة ومليئة بالاشياء الخلابة ولا تنير الملل مثل انكلترا المعجوز. وأنا

الآن أحب العودة الى هناك بكل طيبة خاطر. »

« لا أحد يمنعك من العودة أبداً. »

« وماذا أفعل يا بني؟ أريد أن أؤمن له أولاً مستقبلاً. ان سيد بانسيون الكبير ربما يتري أن يقضي هنا. . . أمه لورا، لا تنظري إلي هكذا من الأضليل لك أن تدعي وتفقدني نيكولا. لقد وعدت دومينيك أن يصطحبه الى الملقع معه بعد الغداء. والله وحده يعلم السبب. أرجوك أن تقنعي نيكولا أن يتصرف حسناً مع عمه الكبير. »

اعتلت لورا بنيكولا طيلة فترة ما قبل الظهر. وذكرته مراراً بتلك الليلة عندما جاء عمه دومينيك ليصدقده وهو نائم، ثم قصص عليه حكاية، كما أكدت له أن عمه سيفض عليه حكاية أخرى لو أنه بعد أن يتصرف تصرفاً حسناً بعد ظهر اليوم في الملقع.

لكن الزيارة الى الملقع كانت فاشلة، ربما لأن كليوباترا قررت مرافقته في آخر لحظة.

عاد الجميع الى البيت بعد ساعتين تقريباً. كل واحد مقطوع الوجه من جهة. وكأنه من الصعب معرفة من السبب في فشل هذه الزيارة، الولد أم أمه.

وضعت لورا الصبي الباكي في سريريه بعدما أخبرته قصة صغيرة، لأن عمه لم يقص عليه شيئاً. وبعد أن غرق في نومه، انسجبت لورا يهدوء من المنزل لتستمع ببقية فترة ما بعد الظهر في وحدتها.

فوجئت برؤية سيارة دومينيك في المرص، كانت تعتقد أنه عاد الى عمله في الملقع. لكنه خرج فجأة من قصص الكلاب ووقف أمامها والكلاب تتبعه. فقالت مندعة:

« أم، أنت الآن في الملقع؟ »

« كلا، أنا في حاجة فقط من الراحة والمواء المتش. اذا كنت تتوبن المترو يمكننا أن نقوم بذلك سوية. »

لم يكن يدعو حل دومينيك ارتياح وحامس. فلا بد أنه، مثلها، كان يفضل قليلاً من الوحدة. ولسوء الحظ، أمها التقيا قررت أن تفرق عنه بعد

خروجها من حديقة المنزل وجواره. وعندما خرج دومينيك من الباب الخلفي، اتجه الى اليسار، فأسمرت الفتاة بالقول:

« أنا ذاهبة الى اليمين. الى اللقاء. »

قال بوقاسة:

« هكذا الآن تتخلصين مني. »

« اعتقدت أنك ترغب البقاء وحيداً. »

« هذا خطأ، يا أنسة سميت. سأبقى معك! »

ران سميت بعد هذا الحوار. ودومينيك يمضي في سرعة من دون مجازلة لورا. فقررت أن تسلكه إذ رآته ساهياً:

« أنا أحقة لفشل زيارة الملقع. لم يتصرف نيكولا جيداً. »

« نيكولا؟ » الصبي كان غائراً، لكنه غضب عندما رفضت والدته أن ينفوخ كيا يريد. »

« يجب أن تصطحبه معك مرة أخرى. »

« كلا. لا اعتقد أن ذلك ضروري. ان سكان المنطقة وخاصة المعلمين في الملقع لم ينسوا الحراك القديم. وتجار العمال هم من أنصار والذي ومن رأيه. »

« هل تعني أنهم يتحاشون رؤية زوجة ثروتي وابنة. »

« تقريباً. بالنسبة إليهم كليوباترا غريبة. والقصة لم تكن جميلة، ولأهالي المنطقة ذاكرة غريبة. »

« لا، لم تكن القصة جميلة. لكن لا شك أنك أحيت هذه المرة كثيراً كي تستخدم للزواج منها مكان أخيك. هل أنا اندخل الآن في شؤونك؟ »
« كلا. أنت لا تتدخلين في شؤوني. يا لورا، لكني كنت ما أزال شيئاً حينذاك. »

نظر إليها بعينه الزرقاوين في حدة وعرفت أن الماضي لم يعد وارداً الآن. فقالت:

« لم يقص على هذه الحادثة إلا سبع سنوات. »

« نعم، سبع سنوات، لكن الإنسان يتغير أيضاً. صحيح أن استنها لكن الماضي قد ولى. »

توقفا على حالة الطريق وجهاً لوجه، فنظرت لورا إليه باشفاق، فقال :
 « اسمعني، أينما التفتة العاطفية. المرأة المعنية تزوجت. وزواجها
 ناجح. وأنا سعيد من أجلها. »
 صرخت لورا بغوية جعلته يشتم. إذ قالت :
 « آه، أنا أيضاً متعينة من أجلها! واسمع لي أن أقول لك أنني لست
 شديدة العاطفة كما تظن. »
 « هل سبق أن وقعت في الغرام؟ »
 أجابت ببساطة :
 « كلا. صحيح أنني تعرفت إلى قليل من الشبان في حياتي، ولست
 أمك سحر وجاذبية كليوباترا. »
 قدمت لذلك اسم ابنة عمها لأن وجه دومنيك نجهم في الحال. وأطلق
 صفيرة للكلاب، وعادوا معاً إلى المنزل عصمت.
 كان العشاء في وقت متأخر في ذلك المساء، بسبب تأخر دومنيك في
 العودة من عمله لأنه أبى بعض الأعمال. وكانت كليوباترا تسام حتى
 الموت ومزاجها معكر.
 نظرت كليوباترا إلى الساعة وصرخت :
 « لماذا تأخر الرجلان؟ »
 كانت كليوباترا ترثني بشدة شديدة الأناقة كأنها تنوي الخروج بعد
 العشاء برفقة بيرغرين. وهذا التأخر ربما أدى إلى تعطيل مشاريعها.
 وحدث فارقة الصبر ومزعجة وأعلنت فجأة :
 « شاعنت اليوم رئيس أعمال دومنيك. ياله من انسان كريمة! »
 « مثل جميع سكان منطقة كورنويل. لا شك أنه يتصرف بقلّة لفة خاصة
 أمام الغرباء. »
 احتجت كليوباترا قائلة :
 « أنا لست غريبة. إني انتمي إلى آل تريلمان! »
 « هذا النوع من الناس لا يعترفون إلا بصلّة الدم. والفتاة التي كانت
 تنوي الزواج من ترويلوس كانت ابنة البلد. »
 هزئت كليوباترا كتفها باستغراب واحتقار وقالت :

« والتأخر أنك تعطين غفلة هذا البلد تمام المعرفة! هل أخبرك دومنيك
 بكل هذه القصص عندما جئته قسراً في نزعة منك؟ »
 « لم أجلبه قسراً. كنت أفضل الخروج وحدي، إذا أردت معرفة
 الحقيقة. »
 صفق باب الدخول وسمعت أصوات الرجلين في البهو. فسيبت
 كليوباترا في الحال ابنة حاملها وانتفضت والقة.
 دخل بيرغرين إلى الغرفة مطالباً بصوت عال بكأس شراب. ودومنيك
 الأكثر هدوءاً دخل وراءه. خلع مشرته ووضعها على مسند الكرسي في
 بروء. فاقترحت عليه كليوباترا أن تحضر له كأساً. فقبل عرضها من دون
 اظهار أي حماسة للأمر.
 وأكد وهو يرخي رطله عنقه :
 « ليس الأمر مزحجاً أن يستقبل الإنسان في منزله كضيف. »
 وفكرت لورا أن ذلك طريقة سلبية يذكر فيها سكان بانسيون أنه سيد
 المكان. لكن كليوباترا لا تستوعب مثل هذه التفاهات. كانت تقوم
 بتحضير كأس للرجل بطريقة ساحرة، وكلها تحركت لا تنسى أن تطير
 تنويرها من أجل المزيد من الأثارة.
 قال بيرغرين وهو يخلقها بنظرة إعجاب :
 « كم تبدين مرتاحة، يا أرملة أخي العزيزة! »
 « يجب لي أن أشعر بالارتياح هنا. أليس كذلك؟ »
 رمت دومنيك بنظرة ساحرة وقالت :
 « هل أياق، يا دومنيك؟ هل أنتصرف أكثر من اللازم، كما لو كنت
 سيّدة المنزل؟ »
 أجابها بيرغرين بإسماة ساحرة :
 « في أي حال، هذه ليست الطريقة المفضلة للحصول على حصادك
 المفضل! »
 ولحسن الحظ وصلت ميريام تملن بأن المشاء أصبح جاهزاً بانتظارهم
 في غرفة الطعام. وبينما جلسوا إلى مائدة الطعام انقطع التيار الكهربائي
 فقال دومنيك حانقاً :

قالت ميريام بصوت تأنيب :

« لا أحد يحير انتباهاً لصاريف الكهرباء هنا.. الاضواء تبقى مشتعلة في الغرف الفارغة وعلى أن اطفئها ينسفي. »

أعلن دومنيك أنه على غير استعداد للخروج في هذه الساعة من الليل ليشعل المحرك الكهربائي الاضائي. فقرحت لورا بالأمر، وأضيء المكان بالشموع والقناديل التي تعمل على الزيت وغرق البيت في حالة حلم فبدت الوجوه ضبابية وشاحبة. وضع أموس شمعة وسط الطاولة وهو يشتم مؤسسة الكهرباء. ولما خرج من الغرفة أطلقت لورا العنان لمخيلتها وقالت :

« أحب هذا الجو الخيميم! »

اشتم دومنيك لكن بيرغرين احتج قائلاً :

« هذا جو مضجرا »

لما دومنيك فكان يبدو أنه يشاطر لورا رأيه.

بدأت كليوباترا تتقدم من أن الطعام أصبح بارداً في الوقت الذي تصاع لاشعال القناديل والشموع. لكن لورا اندجت في تأمل الشعلة وهي تتذكر مزرعة قديمة حيث ألفت من زمان بعيد عطلة الصيف مع العمة فلورا. فجأة صدرت ملاحظة عن دومنيك فأفاق لورا من أحلامها.

قال دومنيك باشمزاز :

« بذلك شاردة! »

كالعادة كانت كليوباترا جالسة على بين دومنيك. فحاولت صفعه، لكنه أمسك بمعصمها بقوة ولبضع لحظات واحداً يفرسان الواحد في الآخر، ونسبا تماماً وجود لورا وبيرغرين. يريق رغبة جاحشة ظهرت في عيني دومنيك فاسترجع وعيه وقال بغضب :

« راقبي تصرفاتك. أنا لست ييري! »

لاحظت لورا أن جسمها بدأ يرتجف، بينما اكتش ابنة عمها بالفهقة غالباً عندما أملت يده عنها. أما بيرغرين فكان يتابع ما يجري من دون كلمة. بينما لاحظت لورا أن بيرغرين بالرغم من تعبيره اللامعالي

والساخرو، كان غيوراً جداً جداً.

اقترب الكلب رويك من كرسي كليوباترا، فأعطته عظم الدجاج فقط من أجل الحافة دومنيك. فصرخ بها غاضباً :

« هل تجهلين أن عظم الدجاج باستطاعته أن يتخرأ معاء الكلاب! »

هضت كليوباترا وتناوبت ومبرحت :

« هيا، يا ييري تعال معي لتسلل خارجاً! »

قال دومنيك :

« أقفلت الحارات في مثل هذا الوقت.. »

« إذن لنعم ينزعه في السيارة. هل توافق على ذلك، يا ييري؟ سيارتك لؤلؤة. لو رآها ترويلوس لأحبها كثيراً. »

هل تذكرت تروي عمدا لتذكر سلقها بأنها تسمى هي أيضاً إلى آل تريفالين. تيباً للورا في يادى الامر أن بيرغرين سيرفض لها طلبها، لكنه انتفض من كرسيه بعنف وخرج من قاعة الاستقبال ووراء كليوباترا. لم تحموز لورا على القيام بأي حركة. انحطت عنبتها ووضعت يديها على ركبتيها، وانتظرت كمنسيلة مدرسة خاتمة السماح لها باليهوض. ظل نظر دومنيك لفترة محدداً في الباب. كان مترعجاً ويداً أنه تذكر فجأة وجود لورا معه.

ولما شاهد في الفتاة الفلق الواضح، استرخت أسارير وجهه وقال :

« يا لورا المسكينة، الحقيقة بشعة مقاومة بأحلامك والاساطير التي تحبها. »

لم ترق عليه لأها لاحظت في صوته نبرة ساخرة، تبدل لطيفة ظاهرياً. أضاف دومنيك وأقلاً :

« حسناً، النهار كان قاصياً، وانت يا ميريام، ناكدي من أن أموس يشكر

لشعال القناديل في غرف الضيوف. تصبحين على غير، يا لورا. »

« ماذا هناك ؟ »

« لا شيء ! »

تلفعت لورا إذ كانت على وشك أن تلمح نفسها، لكن مريم
استقبلت هذا الالتباس بتسامح مفهوم وقالت :

« عندما يكون المرء في أوج الشباب البالغ يخلل نفسه الشكوك،
لكن الأمور تتجلى في آخر المطاف، صدقي... غير متأكد...
وجوه للشكوك... أنه نعم يا ابنتي، هناك دائماً شيء، هل تنوي أبداً
عزيتك البقاء هنا طويلاً ؟ »

أجابته لورا وهي تطوي ثمرتها :

« صدقي هنا حتى يصار إلى العثور على حل لشكلتنا بشكل أو بآخر،
لأننا فاحصة أنه يجب أن أرحل عما قريب. لم أبق لي هنا إلا لفترة لطلب
الطبيب وأتقدم خدمته بسيطة لها. »

« أنت في حاجة إلى الرحيل. »

حلت لجة العتاب من مريم ما يعني أنه لم يكن يجب على لورا أن تفكر
من هذا الطن.

كلفت لورا بالإسراع هي التي اعتادت على الترتيب هذه الحادثة. وفي
نفس اللحظة، أملى رأس ييرغرين من الباب المفتوح وأطلق مزحة كريمة.
لوصل بالصدفة دومنيك وزاده الذي لم يكن في مزاج يقبل المزاح. فقلنا
وجوه بعد :

« حافظ على هذا الترح من الكلام الأشخاص من طينتك. »
أطلق ييرغرين صليماً ساخراً وقال موجهاً كلامه إلى مريم :
« ما الذي أصاب أمي، يا ترى ؟ كان قبالة فرحت ؟ هل يميل إلى لورا
ساعة بالزمن من جاذبية وسحر إبله صديها ؟ إن شعوره بالصدفة الأنيقة
تدرك الحساسية، وأنا أقول لها هذا الكلام من زمان. »
كانت الحادثة قاتلة :

« دومنيك ووث وحده حبة وسكان وعطاف والذك. »

صرخ بها ييرغرين :

« ماذا تقولين ؟ بدأت تحارين إلى صف الفدو ؟ »

٧- أنت حصاني إلى الأبد

اليوم التالي، كان يوم الجمعة العظيمة. وعلى كل سنة يقام القناع لورا
ثلاثة عشرة أيام. وشاءت لورا كريمة ستتم هذه العطلة في صحة أو
لرعيان. كان عليها أن تسمى حادثة الأمس، لكن وبها للأسف، بالرف
من كوما كريمة، كانت تأثر جداً بشأن القضايا بالسبون. كما أنها كانت
تأمل في المحافظة على مسافة ما في العلاقات مع عائلة ابنة عمته كريمة.
لأنه تشعر لورا دومنيك بمحاطة صديقة حليفة !

محبت لورا وهي تساعد مريم في تربية الفس في الحقة صغيرة لت
قرب المطبخ :

« لم أعد أعرف شيئاً... »

قالت الحادثة بلطف :

« هل دومنيك عدو، يا بيرغرين ؟ »
« من كتبه وقال :

« لا، لا... إنه يشتر أعصابي، فقط ليس غير. »

كان يشبه ولداً صغيراً مضطرباً أن ينصح عن غلظه. لكنه ما أن لاحظ
اتزعاج لورا من هذا الحديث حتى استعاد رباطه جأشه وشدة شعرها وقال :
« يا ميريام، بآلت لورا في صفك. وينتهي في أيضاً أنها تكن سيد المكان
حاطقة سريّة. ما رأيك ؟ انقري ! إنها حمير خجلاً ! »

لم تحاول لورا الدفاع عن نفسها من شدة توترها. فرمىها بنقرة حادة قبل
أن يخرج إلى الحديقة حيث كانت كليوباترا بانتظاره. وأعلن من دون تهديد
بغية أحداث صدمة عندها :

« أتمام ما إذا كان السيد الكبير قد وقع في الغرام. »

أجابت كليوباترا على الورتر نفسه :

« ولم لا ؟ أنا مناسبة له. ونحن نؤلف ثنائياً جيلاً، ما رأيك ؟ »
جلس بيرغرين قريباً على مقعد من حجر وكان الطقس جيلاً والشمس
ساطعة. ثم قال :

« ولا أهيئك أنت بل أينة خللك ! »

غضبت كليوباترا فصرخ بيرغرين وتابع يقول :

« وإن تميلك الراححة كان ناجحاً، لكن لا تصوري أنك ستجديري

دومنيك إليك هذه الطريقة. »

« أنت انسان خيول ! »

وظهورت ابتسامته الساخرة وهو يضيف :

« تماماً. لقد حققت هدفك الأول. أما بالنسبة إلى الهدف الثاني...

فهل لديك نوايا تجاه سيد العائلة ؟ »

« نعم. أنا تعبت من العيش حياة غير مستقرة وأريد الاستقرار. من
أجل ومن أجل ابني. في أي حال، لست المستوى المطلوب لتربية الأولاد،
مثل تريولوس... وأنت كذلك، يا بيرغرين. لا شك أن هذا السب
الذي...

« ومعني من الزواج منك ؟ أنت على حق وأنا معجب بصراحتك. »

ذلك، ليست فكرة الولد وحدها هي التي تمنعني من ذلك. قلنا مصرّ أن
أحافظ على حربي. »

« لا تخترع قصصاً الآن. لو لم يكن هناك نيكولا، لتزوجتني من دون
تردد. »

« وما، لكنك لا تعين حتى الآن أن هناك من يتنافسك ! »

« تعني لورا ؟ لا تتفوّع بالحماقات يا بيرغرين ! ما أراءه هو أنها تركت
نفسها تتجذب إلى بطل أحلام سن المراهقة. وهذا شيء عابر. »

« أههه بيرغرين ساخرًا وقال :

« كلا. لم تقمعي بعد. حسب رأي ميريام، دومنيك يادها الشعور

نفسه. »

« ميريام امرأة مجنونة ! »

« ليس تماماً. لا شك أنك لاحظت بأنّي تيقظ برعي أخي شياش ويراة
محجة البيضاء. إنه لا يسمح لها أن ترتاد النواصي الليلية و... »

« لكن هذا لا يدل على أن دومنيك يكن لها عواطف عميقة. بل إنه
متعمد يحس المسؤولية ويعتقد أن من واجبه السهر على لورا كأنها فتاة
صغيرة. وحتى لو كان يشعر تجاهها بعواطف قوية، فإن لورا فتاة ساذجة
ليس باستطاعتها الافادة من ذلك. »

سأله بيرغرين بفضول يجمل إلى الاستياء :

« بينما أنت تتوهم استعمال كل ما لديك من موهب للتوصل إلى الزواج

مع. بالرغم من العلاقات القائمة حالياً بينا ؟ »

« لا تقل من قيمة حظوظي. إنني أملك الورقة الراححة، ذلك أن
«دومنيك يريد نيكولا. »

« ماذا تقولين ؟ »

« لقد كشف عن نيته للورا بأنه يأمل أن يشرف بنفسه على تربية نيكولا
حقاً في بانسيون، وأن لديه مشاريع بهذا الصدد. لذلك يحق لي أن أفكر بأن
«دومنيك قد أدعاني في هذه المشاريع. لقد حطم تريولوس قلب دومنيك
الحزين. والآن هو في حاجة إلى إرث. لكن حتى ولو لم يكن مغرمًا بي
سكنتي على الأقل أن أجعله يرغبني ويتزوج مني. وأنت لن تخسر شيئاً،

قالت لورا متحمسة مع ميريام :
«يا للأسف، يا كليوباترا. هل تتذكرين كم كنا نفرح عندما نكتشف البيض والفراخ الصغيرة المصنوعة من الشوكولا، والتي كانت تقدمها لنا العمة فلورا؟ هل هناك حافلة نهار السبت تذهب الى ميرينبورث، يا ميريام؟»

اقترح بيريجرين عليها قائلاً :

« سأخذك في سيارتي. »

قالت كليوباترا :

« لا تتكل عليّ في مرافقتك. لست أنوي اضاءة الوقت في شراء بيض العيد. سأستغل فرصة غيابك لقضاء بعض الوقت برفقة دومنيك. »
« اتفقنا، يا حلوتي. ستيح لك المجال لتجربي حظك قرب أخي الكبير. أما من جهتنا نحن، لورا وأنا، فلم تسنح لنا الفرصة للخروج معاً، واني أنوي أن أحقق ذلك. »

في صباح اليوم التالي، ذهبت لورا مع بيريجرين، فرحة مثل ولد سيحصل على جائزة. وقد سمح لها الطقس الجميل الدافئ أن ترتدي فستاناً جميلاً.

كانت كليوباترا قد رسمت خططاً لهذا النهار لكن الأمور لم تجري تماماً كما كانت تتوقع. وبينما كانت تودع بإشارات حماسية من يدها، لورا وبيريجرين، كان دومنيك يراقب من دون حركة خروج أخيه الصاحب وكعادته، أفلح بسيارته في ضجة رهيبية وسرعة غير عادية.
فسأل دومنيك :

« فكرة من مشاريع التسوق هذه ؟ كان يجب على بيريجرين أن يساعدني في إصلاح السياج. »

« لا أعرف شيئاً عن هذه الأمور. . . ربما هذه فكرة لورا، لأنها شعرت برغبة في الخروج. هيا بنا نأخذ كأساً، يا دومنيك. »
« أنا لا أشرب عادة في الصباح، لكن هذا لا يمنعني من أن أسكب كأساً. »

كان اقتراحه خالياً من الحماس. لكن كليوباترا لم تفقد شجاعتها

وأخذته بذراعها ورافقته إلى المنزل .

« لا سبب ، يا دومنيك ، لأن تفسد على لورا هذا العيد الكبير . دعها تفرح وتلهو . فحتى الآن ، تصرفت باقائية ، وخرجت من دونها . . . اني لاحظ أن لورا معجبة ببيريغرين كثيراً . . . »
قطب دومنيك حاجبيه وقال :

« صحيح . كنت أعتقد أن تحرشاته بها لم تتكلل بالنجاح . »
« آه ، لكن لورا تعرف أن تخفي عواطفها ! إن معظم الشباب في سنها يخفون انفعالاتهم . . . وذلك لأنهم يخجلون ، هل فهمت ؟ ببيريغرين رجل جذاب جداً . »

ارتاحت في أحد المقاعد في قاعة الاستقبال ، وتوجه دومنيك إلى زاوية القاعة حيث سكب كأساً لكليوباترا وقال :

« نعم ، أخي يتمتع بجاذبية وسحر كبيرين . »
« وما همك أنت ؟ انك غير مسؤول عن لورا . »
« وأنت ؟ أنت الوحيدة التي بقيت لها من عائلتها . »
رفعت كليوباترا كأسها وهي تحاول جاهدة أن تبقى مبتهجة . جلس دومنيك على طرف النافذة وسمع كليوباترا تقول :
« اسكب لنفسك كأساً ، يا دومنيك ! لا أحب أن أشرب وحدي . لورا ؟ نعم ، أشعر أنني مسؤولة عنها بطريقة ما ، لكن ماذا تريدني أن أفعل ؟ ماتت العمة فلورا . ويجب على لورا أن تعيش حياتها . في كل حال ، لست قادرة على أن أقدم لها مسكناً ، إذا كان هذا ما فكرت فيه . فليس عندي مسكن أنا بالذات . »

« لست من الأشخاص الذين يستقرون في مكان واحد ، يا كليوباترا . »
وعاد عن قراره ونهض ليسكب لنفسه كأساً ثم سألها :
« ألم تكوني سعيدة من الحياة البدوية التي عشتها في استراليا ؟ »
تأملت كليوباترا لحظة ظهر دومنيك في صمت . فأى جواب عليها عطاؤه ؟ بدأت تقول في حذر :

« إنه بلد يستحسنه الشاب . »
« هل ترغبين في العودة إلى هناك ؟ »

أرسلت جفتها وراحت تراقبه عن كثب، هل يقول ما يريد في رأسه من أفكار. من أجل الحديث، فقط ليس غير ؟ لم يجرأ أنها تعرف أن دومينيك لا يسبق له أن تتكلم من دون أن يحيي ما يقوله.

كنت أريد أن أعيش في إسرائيل لو كان الوضع مختلفاً. لكن تريولوس مات ونيكولا بحاجة إلى استقرار وأنا كذلك. *

كان دومينيك يدوسها بإمعان. عباءة الزرقاوان تذكر أنها وبها للأسف بأنه لا يشبه تماماً بقية آل تريباقين. وتسلحها عن نيكولا، أعطت فرصة عرض مشاريعه التي تحدثت عنها لورا، لكنه لم يفهم قصدها واكتفى بالاستهزاء عن وقت عودة لورا.

فأجابته كليوباترا في غيظ :

لماذا تريد أن أعرف. لست بحاجة لأن تتصرف مثل أبا عطوف. لا شك أن لورا ما تزال فتاة صالحة، لكنها ليست حواء حتى ولو كانت جميل قليلاً إلى بيرغرين. *

أجابها دومينيك في برود :

أنت من يضحك الأمور. سأنتك فقط متى يتوان العودة. انني انتظر بيرغرين كي يساعدني في إصلاح السياج، هل فهمت ؟ هل تريد أن أكسأ أخرى ؟ *

هزمت كليوباترا رأسها موافقة. كانت متاءة لأنها أفصحت عن نفسها. وفي الوقت نفسه ملّت من تحفظ دومينيك بدلاً من الإصلاح عن مشاكله. ثم قالت ناوليه أن تجرح شعوره. *

والذي أفهمه هو أن لورا تشعر بالزعاج كلما كانت معك. *

أجابها دومينيك بهدوء :

أنا أعرف الصغار والغرياء، أعرف ذلك. *

أثقلت له كليوباترا اعتقادها أنها بدأت تسيطر على الوضع من جديد. لكنك لا تحيطني أنا. باستطاعتي أن أقوم أي واحد من آل تريباقين. *

قال في نظرة ساخرة :

وكذلك ابنة خالك، لكن على طريقتها الخاصة. *

شعرت كليوباترا أن معركتها خاسرة وقالت :

مضحاً إن لورا تدافع عن نفسها دائماً حتى ولو كانت مسخرة منكاهاً تحت أثر الصدمة. معك، تتصرف في حذر أكثر من بيرغرين، وهذا أمر طبيعي، ليس كذلك ؟ إن بيرغرين شاب لا يبلغ من العمر سوى ٢٦ سنة. وهو القليل. *

لا شك أن ما قالته أصاب الهدف المطلوب. إذا كان دومينيك يشعر تجاه لورا بعواطف عميقة، فلا شك بأنه سيحار من الفرق الشاسع بين عمره و عمر لورا. قالت كليوباترا :

هل عليّ أن أجلب نيكولا الآن ؟ *

لكن هذه المبادرة لم تكن سعيدة لأن الولد بدا كثيراً في غياب النجمين بحسين إليه. وظلّ لا يبالي بمحاولات عمه الفاشلة لأرضائه وتسلية. استعيراً عدل دومينيك عن المواصلة في إرضاء رغبات ابن أخيه وانصرف إلى العمل في الحديقة برفقة أموس. ولما حان وقت الغداء كلنت كليوباترا وجدها مع دومينيك. حتى هذا اللقاء أمام مائدة الطعام كان غليلاً واعتذر دومينيك عن مزايها الضعيفة لديه وبدأت كليوباترا تندم على عدم ذهابها إلى سينموت مع لورا وبيرغرين.

عادا في أواخر الظهيرة. وما إن دخلت سيارة بيرغرين البالغ رئيسي حتى بدأ بالطلاق زماميره الصاخبة، فأمرعت كليوباترا للقاءها. ووصل دومينيك أيضاً رافعاً أكمام قميصه. كانت لورا جالسة في المقعد الخلفي وسقطت السيارة كان مفتوحاً. شعرها كان مطير وراها أما بيرغرين، فكان يحترق بقعة صغيرة غريبة. وكانت يتعان بأعلى صوتيها.

قالت كليوباترا في استغراب :

لا شك أن بيرغرين قد سقى الفتاة ما لذّ وطاب من الشراب ؟ *

كان دومينيك ينظر بعصبية إلى أخيه الذي كان يفرج من صندوق السيارة غلياً كثيرة من جميع الأحجام. ثم قال بفرح :

لقد اشترينا عدداً من البيض يكفي لأعالة مئات الأولاد. *

ظنّت لورا مكانها غير مستعدة للهبوط، فقال دومينيك مازحاً وفي عطف :

« لعل الجميع ! »

شرح أنه يريدون قتلاً :

« أصبحت البصاة مترفة... مترفة من الفرح. »

« طفت بجانس وفرح : »

« وجدت أشياء رائعة لنيكولا ! »

كانت حينها تتعمق ولم يسبق أن وأها دومتيك بركة من الفرح. فشرح

بمزيد سيط عندما حلها بيرغرين بين ذراعيه ووضعها أرضاً. تركت

حلقها فجأة على كتفي الرجل الشاب وقالت :

« شكراً يا بيرغرين. على هذا النهار الجميل. »

« وأما أنا فأسعد أنك بإمكانك أن تلعب وألهم مثل الأولاد. »

« أنت يا دومتيك بخلاف وهو يجعل بعض الغلب إلى المنزل :

« لي مسرور جداً لأن نزهتكم كانت ناجحة. »

وبحلال المساء لم تلاحظ لورا أنها تزجج دومتيك بينما كانت تتحدث عما

حدث لها خلال النهار. فهي ما زالت متأثرة بسحر الرحلة والمهمة الأولى لم

تحاول بيرغرين متأكدتها كما هي عادته. فقد تصرف نحوها بلطف غريب

حتى لم لم تعد قادرة أن تفرقه عن أخيه. مثلاً حدث لها ذلك المساء عندما

تركتها بجانبها. لكن خيبة أملها كانت في أوجها عندما التفتا دومتيك إلى

مكتبته من دون كلمة. وهذا أن كليوباترا وبيرغرين يجيدان قضاء بقية

السهرة معاً. ولي الحال شعرت لورا أن وجودها سيزعجها فقررت الذهاب

إلى فراشها.

وقبل الصعود إلى غرفتها مرت بالمكتب لتسقى لدومتيك ليلة سعيدة

وتقول له أنها قامت بشراء بعض العيد كما يجب.

قالت له :

« تصورت أنك لن تفكر بشراء بعض العيد. لا شك أنك لم تعلم من

زمن بأن تلقى مثل هذه الهدايا الصغيرة. »

أجابها بعنف :

« لا سبب لأن تذكرني بأنني رجل مسن كي أتذكر طقولي ! »

انتفضت لورا وقالت متلعثمة :

« لم أكن أعني ذلك. »

بعض دومتيك وإلقاً. يبدو أن مشكلة ما تشغل باله. فقال :

« لو كنت أعرف هدف خروجك مع بيرغرين اليوم، لكنت رافقتكم. »

ادخلت لورا. يا لورا. »

« ألم تعلمك كليوباترا بالأمس ؟ فكر بيرغرين أن نذهب كلنا معاً. لكن

كليوباترا رفضت ذلك. هل ترغب في معرفة ما هي حديثك ؟ »

قال في مرارة :

« لا أعتقد أني سأزال عمة ابن أخي بواسطة بعض الشوكولا، وفراخ

الدجاج المصنوعة من البلاستيك ! »

« ليست الفراخ مصنوعة من بلاستيك ! الدجاجة جميلة وباعمة، كما

اشترت أرنيتاً من جلد القرو. لكنت إنسان كره ! »

« هل جرحت شعورك يا لورا الصغيرة. »

جلس على مكتبته وأخرج عتري غليونه في المنفضة وأضاف قتلاً :

« لم أكن أقصد أن أؤذيك... ولا أن أزعج جارك. »

لكن نهارها بات فاشلاً وشعرت لورا أن دومتيك يتباه الفلق والحلم.

لقد قضى تساً كبيراً من النهار برفقة كليوباترا. ماذا جرى بينهما ؟ لا شك

أنه أحبطها بمشاورته. وكما أن كليوباترا تعرفت لها، راحت تتسلل وتناكته.

فكانت له بهذه :

« لم تزجج نهارى. »

« بل ! لقد تصرف في عصبية وفراخ حير لاسباب لا يمكنك فهمها.

ادخلي. »

« أنا أفهم لماذا. »

فلتت جالسة على عتبة الباب لم تحاول التقدم خطوة.

« صحيح ؟ هذا يدعشني. »

« تصبى على خير يا دومتيك. ليلة سعيدة ! »

ثم اختفت بسرعة هائلة.

عانت آمال الجميع بالنسبة إلى يوم الفصح الذي كان عطراً. واحتاج

لزوج المعكر جميع سكان يانسون الذي اضطروا للبقاء داخل المنزل طيلة

النهار. والعبد الصغير الذي غنته لورا نيكولا كان أن يكون مأساة حطية
فانتصر بيرغرين على دومينيك في استمالة عواطف نيكولا وعلم بمزاجه
المرح والعباه وطريقة تفكيرهم هذيان. لكن كل الجهود التي قام بها دومينيك
لجذب انتباه الولد باءت بالفشل. ولما حان وقت الغداء كان قد وصل
نيكولا إلى مرحلة كبيرة من الأثارة. وبصورة استثنائية تم التوصل إلى أن
يتناول الصبي طعام الغداء برفقة العائلة. لكن هذه البادرة انتهت باليأس
وشعر الجميع بارتياح عام عندما اصطحبت لورا إلى غرفة ليان في فترة
الغياولة.

الفرحت لورا على دومينيك قائلة :

« يجب عليك أن تذهب إلى غرفته وتلصق عليه قصة كما فعلت من
قبل. »

أجابها بلهجة باردة :

« لا أنوي أن أتعطي حبة نيكولا. لقد اعتصمت به كثيراً اليوم وهذا
يكفي. »

ثم أدار لها ظهره وذهب إلى الحديقة للقيام بزهة مع الكلاب برغم
تساقط الطير.

جلست كليوباترا على المقعد في قاعة الاستقبال قبالة بيرغرين وشمرت
لورا أن وجودها غير مقبول، فتوجهت إلى المطبخ لتساعد ميريام في غسل
الصحون وقالت لها :

« عندما لم يكن ناجحاً، اتقى لو يغني بيرغرين من هنا لبعض الوقت.
أنه لا يشعر بدهم عاطلة تجاه نيكولا، بالنسبة إلى ما يشعر به دومينيك تجاه
الصبي. »

شرحت لها ميريام بوضوح قائلة :

« عند آل تريفانين، الذين لا يحبون يتصورون دائماً على الذين يحبون.
وما تتوصلين إلى إحباط هذا القدر. »

« أنا، لا أهتم، يا ميريام. »

« من دون شك، يا ابنتي الصغيرة، في كل حال، عديني ألا تنسى
الحصان القارن. »

الحصان القارن ؟

وبخلول لحظة قصيرة كانت لورا تعتقد أن عليها أن تتحمل تبعات
ميريام العائدية. لكنها عندما فكرت بالأسطورة فوجئت بأحمرار وجهها
وقالت لاختفاء ارتباكها :

« أنت دائماً تتكلمين بالألغاز وتتلفطين بالكلمات السرية والمغامرة. »
أجابت ميريام :

« وإن أهم وقائع الحياة سرية الولادة... الحب... والموت... هل
لاحظت كم يشبه نيكولا عمه بيرغرين ؟ »

اعتادت لورا التليرات المفاجئة في حديث ميريام فأجابت :

« هذا لا يسبب الاستغراب. حسب كليوباترا، بيرغرين يشبه
ترويلوس تماماً. »

وتعم ديا للأسف ! لكن دومينيك هو الذي سيرى الصبي. »
فوجئت لورا وفجئت حينها بعشة فاستغربت لميريام الأمر وقال

« كنت أتصور أنك تعرفين ذلك ! »
صفت الامرئتان مدة طويلة واحتلت لورا غيبة أمل كبيرة وانزواج
ميريام إلى اعتمادها في صورة اعتيادية.

وراحت لورا تتخيل كليوباترا وبيرغرين، لا بد أنها بتعاضد
الوقت بالذات. في الصباح بينما كانت لورا تهم بالدخول إلى غرف

حاملة له الهدايا، التفت بيرغرين خارجاً في بيجامة من غرفة كليوباترا ولم
يشعر بمنزعجاً على الإطلاق. بينما كانت لورا مستاءة ومصدومة جداً. كيف

يمكن أن تكون كليوباترا أن تغفل بالزواج من دومينيك بينما كانت تهب نفسها
لاخيه ؟

لم يظهر دومينيك إلا في المساء. التفت لورا على السلام. فتوقف بضع
درجات أسفل منها ولدى رؤيتها شعره الأسود الليل والشمع تتخلله

شعيرات بيضاء، شعرت بالدوبان بجثلتها. فرقع نحوها عينه الزرقاوين
الجميلتين :

« هل تعرف أن في رأسك شعيرات بيضاء ؟ »
أجاب بلهجة ساخنة !

« آه نعم، إنَّ مرآتي تظهر لي هذه الحقيقة المخيفة، صباح كل يوم. »
تغير تعبير وجهه عندما لاحظ ظلال دموح على وجه لورا، فسألها :
« ما بك ؟ »

أسرعت تقول لتعطشه :

« لا شيء، لا شيء... »

« هل بكيت بسبب بيرغرين ؟ »

رما تعانستها نائمة عن تصرف بيرغرين وكليوباترا، فهزّت رأسها موافقة. لكن دوميتك وبلا لاسف لم يتمكن من تفسير صحة جوابها. فقال
« في صوت فاس كأنه يذكرها :

« بيرغرين شاب جذاب، وفي الوقت نفسه شاب فاسق أليها، لا
قبلي ذلك، يا لورا، »

لم يبدُ دوميتك هو نفسه وعاد يصعد السلام من دون إضافة كلمة.
فربح طرود الغيوم خلال الليل وفي اليوم التالي كان الطقس جليلاً
يكفي ذهب بيرغرين يزرع الكلاب وكان دوميتك يعمل في أنحاء البيت
ثم إن. ففرت لورا اصطحاب ليكولا في زهرة صغيرة. ولدهشتها
تساقط الميوياترا رغبها في مراقبتها. هذا ما كانت تخشاه لورا، خائفة أن
جست تعمل وقاحة ابنة عمها واضرارها على استقصاء الاسرار من
لورا أن.

« وبينما كانت الأمرتان تنزهان على شاطئ البحر مع الصبي، قالت
كليوباترا :

« اعتقد أنك أقدت جداً من خروجك مع بيرغرين مبار السبت. وأنا،
في هذا الوقت، نجحت في مهمتي، يا حبيبي. ان الظروف بدأت
تحسن. »

« صحيح ؟ »

يا ليتها كانت وحدها ! لكن ماذا يوسعها فعله ؟ انتظرت أملة ألا تأخر
كليوباترا في خوض الموضوع، وسرعان ما صرخت تقول :

« لحظي عن دوميتك يا لورا ! »

فوجئت لورا وقالت :

« اسمعي، يا كليوباترا، دعيني وشالي. لست أنا من سيؤخر تحقيق
مشاريعك. وسبق أن رفعت على مسمي بأن دوميتك ليس مهتماً بي ولا
بشيء أمري. »

تغلبت كليوباترا على اضطرابها وأسكت بفراغ ابنة خالها وقالت :
« لا أريد أن أخرج شعورك، يا حبيبي، لكني أشعر فقط بأنك قبلين
قليلاً إلى دوميتك ولا أريدك أن تتألي. لكني أحذرك بأنني إذا فرت أن
أخبره، فليس لديك أي حظ ضدي. »

وغت الساء الزرقاء بدأت الفراشات تطلق من مكانة قروب حلول فصل
الصيف. وفكرت لورا أنها متى عادت إلى لندن، فسوف تتذكر جمال هذا
اليوم بالذات.

سألت في صوت غير مبال وهي تسحب ذراعها من يد كليوباترا.

« إذن، عرض دوميتك عليك مشاريعه ؟ »

« اتفقنا على مستقبل ليكولا. هل أنت مسرورة الآن ؟ »

أجابت لورا بأشمئزاز :

« كلا. أنت على علاقة مع بيرغرين. ولا يمكن أن تفكوي في الزواج
من دوميتك قبل أن تقطعي علاقتك مع بيرغرين. ألا تشعرين بواجبات
نجاه دوميتك ؟ »

وشحتها كليوباترا قائلة :

« آه، اسكتي ! لا تدخل في شؤون لا تعينك ! »

وبعد هذا الحديث، توقفت مدة طويلة عن الكلام. وراى صمت ثقيل،
أخيراً قالت كليوباترا :

« لتصالح يا لورا. أنت أصبحت فتاة ناضجة وبالرغم من أن الحرية
تتصلك، فاستطاعت أن تعرفي مدى تعقيد الوضع الذي أبعد نفسي
فيه. اليس كذلك ؟ »

أجابت لورا في نغمة :

« طبعاً. بيرغرين بالنسبة اليك يمسك لك ترويلوس، ولا يمكن التحلي
عنه من أجل دوميتك الذي يستحق كل حب وحنان. »

ما كان يجب عليها أن تكون صريحة هكذا. فقالت كليوباترا التي أحر

وجهها :

« لا تعتبري نفسك العمة فلورا بالذات. في كل حال، أنت في وضع سيء ولا يمكنك أن تحكمي على الصفات الحسنة لدى كل من بيرغرين ودومينيك. »

خاب أمل الفتاة فنادت نيكولا أن يقترب منها. وفي الوقت نفسه ظهر بيرغرين مع الكلاب التي حررت بفرح إلى الصبي الذي ابتلع أرضاً وراح يطلق صرخات مرعبة.

هضعت لورا غاضبة وقالت :

« مَرَّ الكلاب أن تبعد عن الصبي. أنت تعرف تماماً أنه خائف ! »

« لن تؤذيه الكلاب. »

لكن أمرها بالكسوت والابتعاد عن الولد فاعتبرت لورا من نيكولا وزعمت قربة محاولة أن تؤاسه وهو لا يكتف عن البكاء.

قالت كليوباترا مشمزة :

« يا له من جبان ! أنت يا بيرغرين، اصنع منه رجلاً شجاعاً ! »

فقال ماداً ذراعيه للصبي :

« تعال، يا نيكولا. »

وبالرغم من صدمته، تقدم الولد بتردد من عمه الذي كان يشجعه مردهاً :

« تعال، تعال ! »

ولما وصل نيكولا قرب الرجل جده مكانه وراح يهيج الكلاب التي عادت القفز والعواء... لا هو ولا كليوباترا اعارا انتباهاً لتصالح لورا. وبعدئذ حمل بيرغرين نيكولا على كتفيه ومشى حتى طرف الصخرة، فصرخت لورا في رجاء قائلة :

« توقف. لقد أصيب بدوار. »

لم يعب بيرغرين وكليوباترا قساوتها. كانا يشعران معاً بلذة بدائية ليرها عن جرأتها ووقاحتها في الاضمار بانسان أضعف منها.

فجاءت رجعت الكلاب التي كانت تلحق بيرغرين إلى الوراء وهي تهز بانزياها. فالتفت لورا إلى الوراء ورأت دومينيك يتقدم في خطى سريعة وهو

يصرخ :

« ماذا يجري هنا ؟ لقد وصل صراخ نيكولا حتى المنزل. »

أجابت كليوباترا ضاحكة :

« آه، قامت قياته ولم يعد يتوقف عن الصراخ والبكاء لأن الكلاب

لحست وجهه. وبيرغرين يعلمه الآن أن يصبح رجلاً. »

قالت لورا في صوت خفيض :

« الشراسة والعنف لا يجندان إلا الحلوف. »

لاحظ دومينيك شحوب وجهها، فصحبها في نغمة قاتلة :

« اجلسي على العشب، يا لورا. سأعظم بك بعد قليل. »

ثم التفت إلى كليوباترا من جديد وسأل بنسوة :

« أريد أن أعرف تماماً كيف تتبين أن تشفي ولداً من خوفه من الكلاب

وهو على الاكتئاب في مكان فارغ ؟ »

شرحت كليوباترا مظهره بنفس الأرشاك لرؤية قساوة دومينيك

المواضعة :

« إنه القسم الثاني من الدرس. أنت... أنت تسمي أن يصبح نيكولا

توبقاًين حقيقياً، اليس كذلك ؟ »

قال في سخرية حزينة :

« أي أسف أن تعتبري تريولوس النموذج الوحيد لآل تريفانين. »

كان بيرغرين قد لحق بها وأضعأ الصبي على الأرض. وبينما كانت لورا تتأمل الشقيقتين في امعان لاحظت الشبه الكبير بينهما. الشعر الأسود نفسه والملامح المتوحشة ذاتها... لكن عندما لمس دومينيك لا إرادياً الكتيفة في خدعه، اختفى التشابه كلياً. وتحت شمس الحريف بدا دومينيك أكبر سناً من أخيه الجذاب، صاحب الوجه البسيط الذي لم يعرف أي أثر للتجربة أو الألم. تأملت لورا دومينيك مدة طويلة إلى أن خرج قاتلاً :

« هل جئت، يا بيرغرين ؟ انصرف من هنا بسرعة. سأعظم

بالصبي ! »

قال بيرغرين ساخراً :

« حتى الآن لم يقل منك أن عظم به. »

كان نيكولا وافقاً مكاته من دون حراك مثل حصفور خائف، مسروراً في الأرض بفعل الرب.
قال له دومنيك في لطف :
« تعال . لن نؤذيك الكلاب، لن أهدك بذلك . تعال ، فستلعب لعبة الحصان القارون وسأعيدك إلى المنزل . »
قال بيرغرين وهو ينحني ليعمل الولد في ذراعيه :
« من الأفضل أن تأتي إلى العم بيرغرين . »
فصرخ الولد وهو يركض نحو دومنيك :
« كلا . كلا ! سيكون عمي دومنيك حصاني إلى الأبد . »
لم يقدر بيرغرين أن يخفي تحديه وقال صارخاً :
« يا لك من ولد كافرا ! لنذهب يا كليوباترا ، يبدو أن ليس لنا ما نفعله هنا ! دعني دومنيك يقبل نيكولا ! لو لا ، لا ، أعتقد أنها ستبقى . فهي أيضاً تستحق القلب ! »
تأبط ذراع كليوباترا ومشيها من دون مبالاة وبعد بضعة خطوات ، لم تقدر أن تمتنع عن القول :
« اليوم . سجلت علامة ، يا أخي الكبير ، لكنني سأسترجعها في الغد . »

النهاية

٨- أحزان النعجة البيضاء

تحدثت لورا على العشب وأغمضت عينيها ، محاولة جهدها أن تسيطر على الارتجاف العصبي الذي يتركانها . ما كان يجب عليها أن تشغل بالها بنيكولا ، إذ يبدو أن همه نجاح في تسلقه . لكن ليس بإمكانها أن تعود طفلة لتتمكن هي أيضاً من اللجوء إلى ذراعيه ، فجأة ، شعرت بيد توضع على جبينها ، فالتفتت صارخة :

« نيكولا ؟ »

جلس دومنيك قريباً وراح يتأملها بنظرات قلقة ويقول :
« نيكولا على ما يرام . ربطت حول عنقه منديلاً وهو يلعب الآن لعبة القرصان . »
ولما انتصبت وافقة اكتشفت فجأة أن الصبي يركض كأن شيئاً لم يكن ،

حاملًا في يده قضيباً بدلاً السيف. فصرخت تقول :

«الاولاد والعمون!»

حاولت أن تضحك، لكنها انفجرت في البكاء فجذبها دومنيك نحوه وقال :

« يمكنك البكاء إذا كان البكاء يخفف من آلامك. »

فبكت مدة طويلة وهي مشدودة اليه ثم انتهت في القول هامة :

« احذري، أنا أسفة. »

« هل تشعرين بتحسن الآن؟ »

« أنا أسفة أن أكبدك مثل هذا المشهد، يا دومنيك. يكفيك ما عانيت من انزعاجات اليوم. »

قال مازحاً :

« ألم تلاحظي أن المشاحنات المستمرة تنكث في حياة آل تريفانين؟ ليست هذه هي المرة الأولى التي تبكي فيها على كضي. »

« لا تكلمني عنها، أرجوك. اني خجولة من أمري! »

« كنت تظنني الشيطان بعينه، هل تتذكرين؟ »

كانت نعمة من سحره الطيبة. ألن يكف دومنيك على معاملتها كفتاة صغيرة؟ بدا وكأنه عرف ما يدور في ذهنها، لذا تابع يقول بصوت واضح :

« أندانا كذلك، يا لورا. لكن أرجوك ألا تغضبي مني. إنه نوع من الدفاع عن النفس. »

« سبق أن قلت لي هذا الكلام في المرة الماضية. لكن أنا لست بفتاة صغيرة. »

شد دومنيك ذراعه حولها وراح يلامس بنعمه وجهها ويقول :

« أعرف ذلك. لكنك ما تزالين صغيرة... وسريعة الغضب. أحياناً أخاف أن... »

توقف عن الكلام كأنه على وشك أن يفصح أمره، وشعرت لورا بالأحرار بملأ وجهها.

وفهمت لورا أن كليوباترا ويبرغرين لم يفصحا لدومنيك عن معرفتهما للمواطف التي كتبتها لورا له والتي لاحظها منذ الوهلة الأولى. والآن يحاول

دومنيك أن يجدها. فهو لا يريد أن يشجعها حتى لا تتعذب. وهذا الم يقصر معنى يروثه منذ يوم السبت.

صرخت وهي تفلت من بين ذراعيه :

« لقد مللت! »

« يم؟ من شباك؟ »

كانت نظرات دومنيك مليئة بالحنان وفي اضطرابها، أسرعت لورا بالموافقة على كلامه، فقال معلناً :

« لا تكوني فارغة الصبر، الشباب شيء ثمين. ومنى أصابه الكلال،

يكون قد فات الاوان... هل سبق أن أخبرتك عن وقواق زينور؟ »

« كلا. »

« يحكي أنه، مرة في زينور، في منطقة كورنويل، قام القرويون ببناء

سباح حول وقواق، أملين بذلك استبعاد فصل الربيع. »

كانت لورا مستندة على كوعها وتصغي اليه باضطراب وتوتر. لماذا يصبر على اخبارها قصص الأطفال؟ لأنه يريد أن تفهم جيداً أنها ليست بنظرة

سوي ابنة صغيرة. ما دام الامر هكذا، فقد قررت أن تبدو متعاونة وقالت :

« يا لهذه الاسطورة! لقد أثرت بك، اليس كذلك؟ »

« وجدت تعريفاً لكلمة قارن في أحد القواميس القديمة. »

« آه صحيح! وماذا هو؟ »

« حفظته غيباً : « حصان القارن حيوان خرافي، له قوائم الابل، وذنب

الاسد، ورأس وجسم الحصان، وقرن واحد. عيناه زرقاوان... »

توقفت لورا فجأة ونظرت الى دومنيك. فمبصه المتفوح يظهر عتقه الرجولي. وشفتاه يتسمان فرحاً وعيناه زرقاوان صالبتان في وجهه الاسمر. فقال ضاحكاً :

« يا لهذا التطابق... »

« وبعد ذلك... يلمح الكتاب الى تاريخ و... و... هل أنت الوحيد من بين آل تريفانين الذي يحصل العينين الزرقاوين؟ »

« نعم. أشبه بذلك والدتي. وبما أننا في حديث عن حصان القارن،

خان لنا أن نعيد فرصتنا الى المنزل !

سمع نيكولا كلمات دومينيك الأخيرة وأسرع نحوه في حاس وصرخ قائلاً :

« حصان القارن ! حصان القارن ! »

فحمله عنه في لطف على كتفيه . وبينما كانوا يجتازون الأرض الفائضة بالنباتات الربيعية ، اجتاحت لورا غيمة من السعادة . معها كانت تصرفات آل تريفاين نحوه ، فسوف تحفظ دائماً في أعماق قلبها هذه الاحلام الرائعة التي سراقظها عندما تدق ساعة الرحيل .

لم يحبس بيرغرين الكلاب في القاصواء ، فأسرعت للقاتلهم . فعلق نيكولا بخوف في عنق عمه لكنه لم يصرخ .

قال له دومينيك :

« حسناً ، أنت شجاع يا نيكولا تريفاين ! هل عجب أن يكون لك كلب صغير ؟ »

أجاب الولد متردداً ولفحوراً بلبب الشجاع :

« لا أعرف . هل سيكون لي وحدي أنا ؟ »

أنزل دومينيك الولد عن كتفيه وقال :

« طبعاً . »

قال معارضاً :

« لن تسمح لي كليبواترا أن اصطلمه معي . »

« ما تزال هنا ، يا نيكولا . »

وكليبواترا التي كانت بانتظار ابنها سمعت جواب دومينيك فأسرعت نحوه وقالت :

« هذا أطف منك ، إننا نشعر في بالسيون كأننا في منزلنا وبامكان نيكولا أن يحفظ يكلبه ما دنا نحن هنا . دومينيك ، أرجوك أن تعفوني . كان يجب حل أن أمتع بيرغرين أن يلهم بحساسة اي . بدأت الآن أفهم نظامة تصرفاته . اعدوني ! »

قالت هذا في سهولة حتى أن لورا بدأت تشك في أنها قد حضرته بانتظارهم . ثم أضافت :

« في كل حال ، لقد حققت نجاحاً كبيراً . هذه المرة قطعتك نيكولا على بري . وفلك بفضل سوء تصرفات هذا الأخير . »

صرخ الولد وهو يتعلق بطرف معطف عمه وقال :

« إنه حصان قارن ! »

اقترح دومينيك من دون إصرار :

« هيا بنا نأخذ كأساً . لورا في حاجة لأن تنسى ما حصل وتريح وترتاح من توترها . »

قالت كليبواترا في دهشة :

« لورا ؟ »

كانها تذكرت وجود ابنة خالها فجأة . ثم قالت بأصرار كأنها ودية المنزل :

« آه . نعم ! تعالي يا لورا لشرب شيئاً . قضيت فترة عصية سيئاً . إنني آسفة لما حصل . يا حبيبي . »

فقالت لورا بلهجة قاطعة :

« لا ، شكراً . أفضل أن أصعد الى غرفتي وأغير ملبسي قبل الغداء . »

سأل دومينيك مستعجباً :

« هل تشعرين بتحسن يا لورا ؟ »

« نعم ، شكراً . »

بلدت كليبواترا فرحة لوجودها وحدها برفقة دومينيك قبل حلول موعد الغداء فقالت :

« افعل ما تريدن ، يا حبيبي . إذا كنت مستعبدتين الى غرفتك ، فاصطحي نيكولا الآن . »

قال دومينيك :

« أعتقد أن لورا بحاجة الى بعض الهدوء . أما بالنسبة الى نيكولا ، فيستحق هو أيضاً أن يشرب شيئاً . تعال معنا ، يا بني . »

لم تعارض كليبواترا بل ابتمت انضمام عريضة وتبعته الى الدار . وفي هذه اللحظة ظهرت ميريام لتعلن أن الغداء سيكون حاضراً بعد عشر دقائق .

قالت ميريام :

« لورا، يا ابنتي الحبيبة، تبدين مرهقة. سأقدم لك كأساً من شراب الورد. »

وافق دومينيك على اقتراح ميريام وقال :

« إنها فكرة جيدة. اعطني يا يا ميريام. وقمعي لما طعام الغداء في المطبخ. أعتقد أنها لا ترغب بتناول الغداء معنا. »

وبينما كان يدخل إلى الدار مع كليوباترا وليكولا، امتلأت عينا لورا دموعاً. إنه يقصد القول بوضوح أنه يتفق البقاء وحيداً مع ابنة عنتها. راحت لورا تتأوه وتقول :

« آه، يا ميريام! »

« لا تقلقي، يا عزيزتي لورا. دومينيك يعرف ما عليه عمله. »

« صحيح! »

وبعد اعتدال غير واضح، اختفت الفتاة وراحت تصعد السلالم بسرعة فائقة. لم تعد قادرة على تحمل ميريام وملاحقاتها والغازها وشراب الورد. تجاوزت قوامها وفقدت صبرها.

اختفى بيرغرين عن الأنظار بقية النهار. لا شك أنه ينتقل من ناد إلى آخر. وكليوباترا ودومينيك وجدوا وجهاً لوجه في حفلة غداء صامتة ومملة. ولما سأل دومينيك أرملة أخيه لماذا لم تراقق بيرغرين، تلذعت بالنعيب. لا تريد أن تقول له أنها تأمل في أن تزداد العلاقات معه عمقاً.

ولما عبر عن رغبته في الخروج في نهاية الغداء، قالت :

« حان الوقت للقيام بمحادثات جدية، يا دومينيك، ما رأيك؟ نحن هنا منذ هذه أسابيع، ولا يمكن لهذا الوضع أن يستمر هناك، وخاصة في ما يخص بلورا. »

وافق معها قائلاً :

« بعد حادثة هذا الصباح، من الأفضل أن نتناقش في الأمر. »

جلست كليوباترا قرب المدفأة المشتعلة برغم حرارة الطقس وجلس دومينيك وراء مكتبه بدلاً من أن يجلس قربها، فراحات تحاول المزاح وتقول :

« تبدو مثل معلم مدرسة. يا عزيزي! إنها في أنك ستوحي. »

« أنا لا أوبخ أحداً، ما عدا بيرغرين الذي اضطر أن أذكره بواجباته من وقت إلى آخر. »

« ولورا؟ »

« لم يسبق أن وبختها قط! إلى ماذا تلصحين؟ »

كانت ردة فعله عتيفة. فكلمها ناز الحديت حول لورا فراء سريع العطب، ففترت اهتمام هذه القصة والقول :

« غير أنه يبدو لي، : ربما أنا على خطأ... لكنتك تحفيها بعض الشيء. لا شك أنك تلاحظ ذلك. هناك عدد كبير من الفتيات اللواتي يحبن أن يخيفن الرجل... خاصة إذا أخذهن بين ذراعيه ليدفعهن إلى الثقة بالنفس. وهذا الشيء يمكنه أن يكون نوعاً من لعبة غرامية، هل تفهمني؟... لكن لماذا تنظر إلي هكذا؟ هل أصبت الحفيظة؟ »

« كلا، أبداً. أرى أن لديك وجهة نظر رديئة عن ابنة خالك. »

تابعت كليوباترا بلهجة اعتدال :

« آه، لا شك أن لحظة إكن متأكد، يا دومينيك، أن لا ألومك إذا تسببت معها قليلاً إذا كانت تمجيك. لكنها في الوقت الحاضر، لا تفكر إلا في بيرغرين، سبق أن قلت لك ذلك. أخيراً، فلتسها وتحدثت عن ليكولا. هل فكرت بمسقبله؟ »

كانت كليوباترا قريحة لأن كلماتها أحدثت في دومينيك نوعاً من الاضطراب الظاهري لم يتسكن من أضافته. إذن بيرغرين على حق. لورا الصغيرة تجمعت في أصرام ناز الحب عند الأخ الكبير. وتحسن الحظ أنها ما تزال ساذجة وبالتالي غير قادرة على الافادة من الوضع.

قال دومينيك بصفاة :

« لقد... لقد فكرت بمسقبل ليكولا. أنت برهنت لي ما فيه الكفاية عن خبرة في الحياة وأنت لا تتحرفين بسهولة في سياق العواطف مثل معظم النساء. لذلك يمكنني أن أكلمك من دون موارد. »

شجكت المرأة ساقها الجميلتين في أنيقة وطمه. وخيل إليها أن دومينيك لم يجد طريقة عاطفية ليعرض عليها الزواج، لكنها تيبأت بالأمر. لا يدخل الحب بينهما، لكن هناك تسوية وتديروا لصالحهما معاً. استرخى دومينيك في

مقعده وحقق كليونياترا في نظرة زرقاء فاجتاحت الفتاة شعيرة ناعمة.
إنه يملك بطريقته الخاصة جاذبية وسحر آل تريفاين.

قالت له في نقاد صبر :

« تكلم . إن ما يلائمك يا دومينك يلائمني أنا أيضاً بكل تأكيد . »
« هكذا كنت أظن . »

« ليس هناك أي شك . تكلم . . . في كل حال أعرف ماذا ستقول
لي . »

« صحيح ، يا كليونياترا ؟ في هذه الحال ، اجراءاتي ستكون سهلة .
كنت أجهل أنك تملكين موهبة قراءة أفكار الغير ، إضافة إلى جاذبيتك
وسحرك . »

« في الحقيقة ، لورا وضعتني على الطريق ، تريد نيكولا ، ليس
كذلك ؟ »

« آه ، بدأت أفهم أفضل ! بالفعل ، يا كليونياترا ، إنني ، ليس فقط
أن أؤمن له حياة مستقرة من الناحية المادية ، بل أنوي أيضاً تربيته . أريد أن
أبدل جهدي كي لا يصبح مثل والده . واسمح لي أن أقول لك أن
ترويلوس كان مليئاً بالأخطاء . »
« عارضت كليونياترا مبسمة :

« لا تنس أن نيكولا وورث شخصيته عني أيضاً . »

« أليس أول من يقول علناً أنك لست مؤهلة للاهتمام بالأولاد ، يا
أرملة أخي العزيزة ؟ »

« قلت إنني لا أستطيع أن أقوم بهذا الدور وحدي . لم يسبق أن قلت إنني
أم جيدة . لكن ، إذا وجدت رجلاً يريد أن يجعل مكان زوجي ، ويسهر علينا
نحن الاثنين . . . »

قاطعها دومينك وهو يشعل غليونه :

« لا يجب الإنكسار على ذلك كثيراً . أنا أكيد من أنك ستزوجين مرة
ثانية . لكن هذا الصبي يمكنه أن يكون عائقاً لتحقيق ذلك . إذا اهتممت به
أنا في شكل كلي ، أكون قد أفسحت لك المجال . . . »
صرخت قائلة :

« ماذا تقصد بذلك ؟ »

« كان صوتها قوياً جعل دومينك يرفع رأسه في الحال ويقول :
« اعتقدت أنك فهمت جيداً . إنني اقترح عليك أن توكلني إلى مهام
الاهتمام بنيكولا كلياً . لا أنوي تبنيه إلا إذا كانت تلك نيتك . وبطبيعة
الحال تظنّين حرة لرؤيته متى شئت ، وإذا تزوجت فبإمكانه أن يسكن
معك . في كل حال ، لست مسؤولة عنه كلياً ، من الناحيتين المادية
والمعنوية . . . ما بك ، يا كليونياترا ؟ كنت أظن أنك ستقبلين عرضي بكل
سرور . . . إنك لا تريدان الاحتفاظ بهذا الصبي ، أليس كذلك ؟ »
قالت غاضبة :

« هذا ما قاله لك لورا ، أليس كذلك ؟ »

« دعني لورا تخارج هذه القضية . »

« وان صمت طويل رأى خلاله دومينك المشاعر المختلفة في ملامح وجه
أرملة أخيه ، التي رددت تقول بعد وقت غير قصير :
« إنها لورا . إن ابنة خالي الصغيرة حاذقة أكثر من الظاهر . لم تضع
وقتها سدى . »

« أكد لها دومينك من دون التخلي عن هدوئه :

« أنت غطتة ، يا كليونياترا . »

« بيرغرين على حق . لقد وقعت بفراغ النعجة البيضاء ! لكن لا تنس
إنها تفضل بيرغرين وتعلم أن تبه كل كيانها . ربما سبق أن وهيت ذلك ،
من يدري ؟ »

« ضرب دومينك بمعصمه على مكتبه بعنف جعل كليونياترا تنفض .
نظرتها المهذبة أعادت له هدوءه فجأة . فقال :

« عندما تنهين من خطتك القلدة ، بإمكاننا حينذاك متابعة النقاش . »

قالت جاهدة في السيطرة على ارتعاج صوتها :

« لن أعطيك ابني . كنت أعتقد أنك تقدم لي عرضاً مناسباً . »

« ظل جامداً وسأها :

« وما هو ؟ »

« آه ، يا دومينك ، ستجعلني مجنونة ! أنت تعرف جيداً لماذا أفكر ! هل

تكرهني إلى هذه الدرجة. أو أنني غير جديرة بكبار آل ترينغان ؟
 أحدثت وهي تتكلم، ثم نهضت واقفة وعيناها تلمعان وشفتاها تهبطان
 ثم القريت من دوميتك الذي اثابه شعور بالشفقة. قال :
 « لا تطرحي أسئلة حرجية. أنا أعلم أنك حللت بالتوصل إلى نتيجة
 مزعومة. أرجوك لا تأمل خيراً. »
 « لماذا ؟ اليس هكذا يصرف وينكر آل ترينغان ؟ »
 « البعض منهم، ربما، لكن أنا لا أفكر هكذا. عودي إلى مقعدك، من
 فضلك ولتتابع موضوع حديثنا. »
 وبدلاً من أن تنفذ ما طلب منها، انحنى حشوه فوق المكتب وانتمشت
 له ابتسامة تحد. وقالت :
 « أه، لا. عندي شروط عليّ طرحها عليك. إلي أصغر عمل الزواج
 منك ! »

قال دوميتك في هدوء مزعج :
 « أنا أكيد يا كليونيترا، أنك لا ترغبين ولا لحظة في أن تصبني زوجتي.
 ربما تصبرين على أن أقول لك كل شيء. فقلت أنني أن تزوج من امرأة
 غفوني تحت سقف بيتي مع أخي. اليس هذا ما كنت تودينه ؟ »
 وضعت كليونيترا يدها بعنف على كتفه دوميتك وشعرت بلغة كسرة إذ
 رآه قد شحب وجهه غيظاً، فتبعتها قائلاً :
 « ولا تحاولي إعادة ما فعلته الآن. وأرجوك أن تخرجي من هنا في
 الحال. مستبعد هذا الحديث عندما تستعدين وحيك. »
 كانت تغلي غضباً ففالت قبل أن تخفي عن الأنظار :
 « سأذهب، يا دوميتك، لكنك لن تشتريني بسهولة. ولا تسر أن
 بيرغرين ليس بخيلاً ولديه الكثير لإعطائي. ولورا استحققت كرمه
 أيضاً... أنه يسرق حيثك كما فعل تريولوس في الماضي. اليس الأمر
 شديد الغرابة. »

من رأى تعبير وجه دوميتك في هذه الأثناء، يمكنه القول بأن كليونيترا
 كانت فخورة جداً لدى خروجها من هذا المكان.
 وبعد فترة قصيرة، وجدتها لورا في السرير، وقد اعترتها نوبة بكاء.

وغضب. وعرفت من تجربتها السابقة أن عليها أن تتركها حتى تهدأ
 وحدها، أخيراً ساكنها :

« هل ويحك دوميتك يسب نيكولا ؟ »
 « وبخني ! هل تعطيني تعليمات مدرسة يؤتها المعلم وألماً صوت
 ويعلمها تكني لئلاً. هذا ما يحصل معك أنت، لأنك وقعت في حب
 دوميتك ! لا تنكري. لقد رأيت وجهك صباح اليوم عندما وصل إلى
 شاطئ البحر. »

ارتجفت لورا لكنها توصلت إلى الرد بعزة نفس قائلة :
 « ما أشعر به تجاهه لا علاقة لأحد به. »
 « أنت ختمة، أينما التفتاة الصغيرة ! دوميتك مزعج من ذلك، إنه
 حزين لأنك اعتبرت لطفه وإيادته، عواطف شخصية. ووكلي أن أحذرك
 بخطورة الأمر. »

قالت لورا ساخرة :
 « هل أنت الآن تبكين لهذا السب ؟ »
 لم يسن أن حذرهما دوميتك بنفسه في شكل سرّي عندما كانا معاً برفقة
 نيكولا، بعد ذهاب كليونيترا وبيرغرين ؟ بدأت الأمور تنضج في رأسها.
 الحوادث مترتبة...

تابعت كليونيترا تقول :
 « أن لك يا لورا أن تنعقي. دوميتك لا يفكر فيك ولديه نوابا آخرين،
 صدقيني ! في كل حال، يريدك أن تبدلي بالتفكير في الرحيل من هنا. »
 أجابت لورا في صوت مطلقاً :
 « حسناً، وأنت ؟ هل وصلت إلى اتفاق بناسيك في ما يتعلق
 بنيكولا ؟ »

« أه، نعم. الوضع في تحسن مستمراً لن نذهب معك، بكل تأكيد. »
 « جيد جداً. »

فرحت كليونيترا لرؤية اضطراب لورا وارتقاء تقاطيع وجهها، وقالت
 لها :

« تشجعي يا لورا الصغيرة، وفكري جيداً بما شغلته، ومسترين أن

دومنيك ليس إنساناً قاسياً .

« ماذا تعين بذلك ؟ »

« ألم تقولي له ماري لا أضع لك ثمن اهتمامك بتيكولا ؟ »

لم تفهم لورا اتهام ابنة عمتها، ثم تذكرت لقاء قديماً حصل بينها وبين دومنيك حين فتح دومنيك بنفسه هذا الموضوع .

« لم يسبق أن تلمعت لهذا الأمر أبداً . »

بهضت كليوباترا وجلست أمام منضدة الزينة لتزين وجهها وقالت :
« في كل حال، فهم أنك تريدني بعض المال، ولن يدعك تدعين من هنا من دون أن يقدم اليك مكافأة مالية لما قدمت به من مساعدات لتيكولا . على الأقل سيعتبرك مثل أي موظفة جيدة . »

« أشكرك لإعلامي بالأمر . لن أقبل ترهماً واحداً منه . »

قالت كليوباترا التي شفت من أزمتها العصبية في سرعة رهبة :

« ستكون الضربة قاسية لمررة نفسك . »

في الوقت الحاضر كانت لورا هي التي تبدل جهداً لكننت دموعها .
فخرجت بسرعة من غرفة ابنة عمتها والتفت بدومنيك في أسفل الدرج .
فقال في استغراب :

« آه، لورا . هل بإمكانك أن تعطيني قليلاً من وقتك ؟ أريد أن أحدثك . »

وبالرغم من رغبتها في أن تتحاشاه، اضطورت إلى أن تتبعه حتى غرفة المطالعة . هل سيطلب منها بنفسه أن تغادر بانسيون ؟
سألها كأنه يؤكد خوفاتها :

« ما هي مشاريعك للمستقبل ؟ هل عندك وظيفة أكيدة ؟ »

« كلا . مناضطر للبحث عن وظيفة . »

« في هذه الحال، أقترح عليك أن تبقي هنا . »

فتحت عينيها الدهاشاً . كانت تنتظره أي شيء إلا هذا العرض . ثم قالت بصوت متقطع وهي تتفحصه هامشياً :

« لا أفهم . »

بدا لها غامضاً ومتعباً وحزيناً . فقال :

« لكن عرضي واضح للغاية . أحب أن تستعري في الاهتمام بتيكولا . »

كان يتكلم وهو يذرع أرض غرفة المكتبة دغلاً وإيماً . لم يفكر في أن يدعوها إلى الجلوس . فاضطرت لورا أن تتكلم على جدار المدفأة لأنها شعرت فجأة أن قدميها غورزان . كان يجدها في حجل لم يشعر به من قبل .

فقالت :

« تريد أن توظفي كمربية أطفال . »

« يا إلهي، لا ! بل أبل أأبتغير شيء . وأن تبقي عيني كما هي الحال الآن . »

همست تقول :

« أخبرني فهمت أن إلتصقي هنا قد طالت . »

« ومن قال لك هذا الكلام ؟ كليوباترا ؟ »

أجابت بجملة :

« لست في حاجة لأحد كي أفهم أن وجودي هنا بدأ يثقل . »

« صحيح ؟ وماذا ستفعل لورا بحياتها عندما تترك بانسيون ؟ »

كان يتكلم كأنه أب يجادل ابنة في حنان . ابنة الصغيرة التي ما تزال تنقصها تجربة الحياة .
فقالت لورا غامضة :

« تكف عن معاملتي مثل ابنة صغيرة . أنا أعيل نفسي منذ سنتين . وقد بدأت أعمل حركاتك . »

إبصاره الخونة ما لبث أن غادرت ملامح وجهه . فقال مترعجاً :

« عفواً . لا أعرف كيف أنصرف معك . . . اسمعني . . . أنا في حاجة إليك . يا لورا . »

ولدى سماعها هذه الكلمات . شعرت بضغف يجفلها وقالت في صوت غلاب عنه الأمل :

« ماذا تريد مني ؟ ماذا تنتظر مني أن أفعله ؟ »

وفي عتف غريب، أجاب في الحال :

« ما لا يمكنك أن تعطيه لي أبداً . هل توافقين على البقاء ؟ »

« بما أنك اتفقت مع كليوباترا في ما يختص نيكولا، لا أرى ضرورة للبقاء. »

« هل رأيت ابنة حمتك بعد ظهر اليوم ؟ »

« نعم. كانت في حالة توتر غريب. »

« ماذا قالت لك ؟ »

« في خصوص نيكولا ؟ إن الأمور تجري في الطريق الصحيح وأنها ستبقى معي في باتسيون. »

« هل قالت لك إذا كانت تثوي الاعتماد باليهي، بالذات ؟ »

« لا، لم نتحدث عن هذا الموضوع. بإمكان مريام الاعتماد بالأمير بضعة أيام حتى العثور على تدبير آخر، حسب ظني. »

« هل يعني ذلك أنك لا ترغبين حلاً في البقاء هنا ؟ كنت اعتقد أن المكان يروق لك وأنت مسرورة بوجودك هنا. هل تريدن الذهاب للتغرب من بيرغوين ؟ »

« بيرغوين ؟ كلا... أه لا ؟ إلى ماذا تلحق ؟ »

« توجهت نحو الباب مقروءة أن تنهي هذا الحديث الغريب والمؤلم. تقدمت مني دومتيك وأمسكتها بكتفها وقال :

« ماذا جرى، يا لورا ؟ كان تصرفك معي غريباً خلال عطلة نهاية الأسبوع. »

« من الصعب علي أن أكون طيبة مع السيد الجشع. »

« اعتدت يدا دومتيك من كتفها حتى معصمها. وانحنى فجأة أمامها ليحاطها. كان عناقها عتيقاً ومطلياً، فاستسلمت لورا للأمر من دون أن تفكر في الدفاع عن نفسها. لو لم يكن ممسكاً يديها لوضعها حول عنقه فجأة ابتعد عنها بالعنف نفسه وقال :

« أنا أسف لما حدث، لكنك أنت الذي فعلتي لي ذلك. لم أعد أعمل أن يقال في أي سيد جشع. هذا اللقب من تأليف بيرغوين، ولا أريد أن أسمعه إطلاقاً. »

« أطلب منك أن تعلمني، يا دومتيك. لم أكن أقصد أن أخرج شعورك. »

« أنا المقروء في أن اعترض منك. »

« هل ستعقب مني إذا قلت لك إن السيد الجشع لا يعتذر أبداً ؟ »

« جعلته يفسحك، لكنه عاد إلى ما كان يشغل باله وقال :

« لم أأخذ جواباً بعد. »

« على ماذا ؟ »

« على عرضي. »

« أعلنت في مرارة :

« أنك لا تخطو من العروض، على ما أظن. لقد قدمت عرضاً إلى ابنة عمي منذ قليل. »

« جالت بالها من جديد القرارات التي تم الوصول إليها مع كليوباترا. ولم يلاحظ حزناً وروحاً يشرح لها قائل :

« أريد أن أحب نيكولا الوقوع في تضييعات مفاجئة. ذهابك سيؤدي به إلى صدمة سيئة. »

« ولما رأى الحزن يرسم على وجه لورا أسرع بالاضافة قائلاً :

« هل ارتكبت خطأ آخر من جديد ؟ أريد أن أقول فقط إن الصبي يجب مومو كثيراً. وإذا كان العائق مادياً فسوف نتألم معاشاً عترياً. »

« ذكرت كلمات كليوباترا وقالت :

« ومكافأة عندما سألتها ؟ »

« تقمص وجه دومتيك من دون أن تلاحظ لورا انكماشه وقال :

« طبعاً، إذا كان هذا ما كنت ترغين فيه. عليك أن ترسي قوتك واني اقهمك جيداً. »

« هذا أكثر ما كانت لورا قادرة على تحمله. خلال عطلة الفصح هذه، تراكت غيات الأمل والمعاكسات والموانع وأصبحت كلها عليها. وحل الغضب مكان طيبتها الناعمة وصرخت تقول :

« لن أقبل دوماً واحداً منك مع كليوباترا كل الحق أن تحدثني من نوابك البشعة ! »

« وانفجرت بالبكاء ولما حاول أن يأخذها بين ذراعيه، رجعت إلى الورا في سرعة. فتمس بصوت مرتج :

« يا عزيزتي لورا، لم أكن أقصد أن أجرح شعورك.. ماذا أخبرتك ابنة عمك اللعينة؟ »

كانت لورا شديدة التوتر لتلاحظ أن كلمة « لعينة » صفة غريبة تطلق على زوجة دومنيك في المستقبل.. فصرخت والدموع تنهمر في قوة :
« الحقيقة! إذا بقيت، فسأبقى من أجل نيكولا فقط وبإمكانك أن تحتفظ بمالك لك... لكن لا أعتقد أنني سأبقى.. آل تريفاين ضحكوا مني ما فيه الكفاية.. انسيت أن لي عزة نفس وكرامة! »

صرخ دومنيك :

« لماذا وقعت في الغرام... »

في هذه اللحظة بالذات انفتح الباب على بيرغرين الذي قال :

« آه، آه! لورا تبكي! »

أمره دومنيك في حدة :

« اخرج من هنا.. أنت مترنح! »

لكن لورا تعلقت به وقالت :

« خذني من هنا، يا بيرغرين، لا أريد البقاء في هذا المنزل! »

رمى أخاه بطريقة عين وأمسك الفتاة في خاصرتها وأخرجها من المكتبة وسألها :

« هل تعتقدين أني مترنح حقاً؟ »

كانت قد وضعت جيبتها الساخن على ثمال القارن البرونزي الموجود في البهو وشعر بيرغرين بحس داخلي وهو ينظر إليها، فأجابته لا مبالية وهي تجلجل دعوعها :

« لا أعرف.. لماذا عدت باكراً؟ »

« هكذا بدافع الفضول... أو بالأحرى بسبب ندمي.. تركت أرملة أخي الراحلة تواجه غضب دومنيك وحدها.. هل وبّخها كثيراً بعد حادثة الصباح؟ »

« انتهى بي ذلك، لكن... »

« لكن المحادثة نجحت في الانتصار على الموقف وتحويله إلى صالحها..

هل توصلت إلى معرفة مشاريع أخي المستقبلية؟ »

« نعم.. »

« حسناً! افعلني واغسل وجهك وتعال إلى هنا بعد نصف ساعة لأخذك

إلى ناد ليلى.. يجب أن أتكلم مع ابنة عمك.. »

صعد السلم ولما وصلا إلى أعلاها، التفت إلى الوراء.. كانت لورا ما تزال مستندة خدها على حصان القارن.. فقال قبيلاً أن يتوجه إلى غرفة كليوباترا :

« آه، أينما الضية الصغيرة! »

كانت كليوباترا ما تزال جالسة أمام منضدة الزينة تهيئ تزيين وجهها..

فقال بيرغرين :

« مرحباً، يا عزيزتي.. يبدو أنك عانيت مشاكل جمّة مع أخي الكبير؟ »

كذبت تقول :

« وذلك بسبب مآثر.. »

« وماذا بعد؟ »

« لم أحصل على ما كنت أريده.. »

« لست استغرب الأمر، يا جميلتي.. دومنيك ليس بكيفية آل تريفاين..

لذلك ليس مؤهلاً ليكون لك.. »

لاحظ استياءها فأضاف :

« اكتفي بما عرض عليك.. لماذا تصرّين على الزواج منه؟ لا أعرف أنك

تتبعين بحس خلقي.. »

« الحياة أسهل عندما يكون المرء قد أدى ما عليه مع القانون.. »

« هل تريدان في الوقت نفسه استقرار الزواج واستمرار علاقتنا؟ »

قالت مندهشة :

« أليس هذا ما ترغب به؟ »

تحدّد بيرغرين من غير انزعاج على السرير وقال :

« فكرت بالأمر، لكن... مجرد التفكير بالأمر، أشعرتني بالاشمئزاز..

نعم.. إنني مشمئز! لا أعرف ماذا حصل لي.. لا شك أني أملك روح

الشرق، من دون أن أعرف ذلك وأعيه! »

قالت ساخرة :

« هل تتصرف كما يتصرف دومنيك؟ »

أجابني في هدوء :

« آه لا هيا، قولي ما كان الاقتراح الاخ الكبير. ليس الزواج، إلى أكيد من ذلك الآن. الآن ماذا؟ »

كانت أن تخبره تفاصيل لقاءها المهيئ، لكنها لم تنق بيرغرين الذي لا شك يريد لها. فاكثفت بالقول :

« اقتراح علي أن يتم هو يتكولا كلياً، مادياً ومعنوياً. »

« يجب عليك أن تقبلي هذا العرض من دون تأخير بكل الاستمرار في العناد على الزواج. »

« إذا أراد دومنيك الحصول على حضنة يتكولا، فهو في حاجة لأن يقبل شروطي. »

« هل تسبت لورا، يا عزيزي، وحضانة القارون؟ »

أجابني في عطف :

« آه، لا تضايقي بهذه الأسطورة السخيفة! في كل حال أقنعت دومنيك أن لورا خسرت مرادها منك. وبما أنه يعرفك فلعاً... »

« يا لك من امرأة حقود وانتقامية... ما بك، يا كليوباترا؟ لا تعاندي في حماة وتفاعله، في الحقيقة، أنت تأملين أن تتخلصي من يتكولا وأنت لا تشعرين تجاه دومنيك بأي عاطفة، ماذا الآن؟ »

في هذه اللحظة، يذكرها بيرغرين الممدد على السرير بزوجها الفقيد ترويلوس. قراحت تدومه وتحسب الخطوط من أجل أن تحصل منه على الزواج منها. فقلت في نفسي :

« أنا امرأة انتقامية وحقود مثل آل ترويلان! إلى ترويلان بالذات! »

تجلس بيرغرين ليجلس المرأة إلى السرير معه. وقال وهو يخالطها :

« آه نعم! لقد أسرت قلبي كما حصل مع ترويلوس. كنت أفكر حتى في الزواج منك عندما قررت اغراء دومنيك. لا تعاندي يا كليوباترا! »

سأله وقد وترتها لسأله :

« ماذا تقصد بهذا؟ »

« ستكلم بالأمر فيها بعد... فيها بعد... »

ولما وجدت نفسها وحدها، بقيت كليوباترا لحظة متملدة على السرير وتفكر. تذكرت أحلام مرافقتها، وأحلام الحب والبرامة واللطف. ثم

تذكرت أن تغاب بيرغرين مع لورا سيقسح لها المجال مرة أخرى للتحدث مع دومنيك. فازدنت ملابسها وراحت تبحث عنه. وفي هذا الوقت كان

بيرغرين قد اصطحب لورا إلى « سانت هوان ». لقد تدم على دعوته لكنه لا يريد التراجع. ومن حينها شعرت لورا بارتياح للانعقاد عن باسيون.

في آخر الحانة المليئة بالصخب والضجيج، بدأ الحديث يحمق ويذا بيرغرين لكنه المزاج.

قالت لورا لنفسها في صوت مرتفع كلما هي عاتبها :

« لا أريد الالتزام. »

« الالتزام بماذا؟ »

« الالتزام بقضايا باسيون. »

« لكنك التزمت، يا حلويا! ألم تجبي قلبك السخيف إلى السيد الجمع؟ »

اختضعت رأسها فنصحتها بيرغرين بالشراب لتتسى همومها وتكدرها. نقلت في حزن :

« نحن الاثنين نعيان، ليس كذلك؟ »

تأثر بيرغرين فجأة بتفانيها الكثيرة وشعرها الناعم المجد حول عنقها التحيل. اتحن نحوها ليضمها ويجهها عن كذب وليس يدها بيده.

فايتمت له لورا. في هذه اللحظة بالذات، التي بيرغرين إلى صمت عابر في الحانة.

شعر بقلبي والفتت وراءه نحو الباب، وتبعت لورا اتجاه نظره.

كان دومنيك هناك واقفاً، وفي يده كأس. كان يحدق فيها بتعبير رهيب جعل الفتاة تطلق صرخة قوية.

تسليتي وتفرض عليّ الأوامر .
 « ليس هذا أمراً بل مجرد سؤال . هل أنت مستعدة للعودة ، يا لورا ؟ »
 أجابت في تحوف :
 « نعم . »
 نهضت ثم قالت لبيريغرين الذي شرب حتى الشمالة ولم يكن يمي
 اشارات الغضب عند أخيه :
 « تعال ، يا بيريجرين ، لقد أمضينا وقتاً سعيداً . أما الآن فحان وقت
 العشاء . »
 « تفضلي بالجلوس ، يا لورا العزيزة . أردت الخروج معي وستعودين
 عندما أقرر أنا ذلك . »
 لم تعد قدماها تحملاها ، فاضطرت للجلوس ، فقال بيريجرين :

« حسناً ! والآن ، يا أخي ، دعك من التصرف ككلب الحراسة . »
 لاحظ دومينيك كمية الكؤوس الفارغة على الطاولة أمامها كما اتبه الى
 حيرة لورا وارتباكها ، فأعلن من دون غضب :
 « بما أنك أرغمت هذه الفتاة على احتساء الشراب هي التي لم تتعود على
 ذلك من قبل ، فأنك تضطرين للتدخل في الأمر . ما هو هدفك ؟ هل تنوي
 أن ترميها على العشب في طريق العودة ؟ »
 صرخ بيريجرين واقفاً وفي يده أن يخلف مشكلة وشجاراً :
 « لكنك تغار ! صحيح أنك غير محظوظ مع الفتيات ! »
 أصابه معصم دومينيك في ذقنه ، فوقع على كرسيه . لكنه لم يحاول الرد
 عليه لأن الشراب قد خدر قواه . فارتاحت لورا للأمر . واكتفى بيريجرين
 بالقول بصوت ثقيل :
 « مستندم على ذلك . نعم ستندم على ذلك ! »

لكن دومينيك لم يهز انتباهاً . أما هو ففي سقوطه أوقع كؤوساً ومزهريّة
 كانت تزين الطاولة ، وظهرت وراء المزهريّة زجاجات الشراب التي كانت
 قد خبأها لورا من أمامه . فلاحظها دومينيك وقال :
 « لقد قدرتك أكثر مما تساوين ، يا لورا . أنت إذن تدعيني الى الشراب ،

٩ - عناق عند الغروب

انضحت صورة دومينيك على ضوء الحانة . وثباً للورا خلال لحظة
 قصيرة أنه ستتناها الرؤية التي حصلت لها في النهار الاول لوصولها الى
 المحطة . لكن سرعان ما تبدد هذا التوهم الباطل .
 اقترب دومينيك من طاولتها وسأل في لهجة عادية :
 « هل أنتما مستعدتان للعودة ؟ »
 كانت الفتاة تنتظر حصول انفجار غضب . لكن هدوءه المفاجئ كان
 بمثابة دوش بارد ، فأسرعت تقول :
 « نعم . نحن عائدتان ، اليس كذلك ، يا بيريجرين ؟ »
 وبدل القبول تمكّن الرجل في كرسيه وتناول كأسه بهدوء وقال :
 « اسمعني جيداً ، يا دومينيك ، لا أسمح لك أن تظهر فجأة لتعكر صفو

وفي طريقك للشقة! لقد الآن. دعيه في دوحته! »
أفرغ دومينيك كأسه في عجلة، ثم وضعه على الطاولة وأخذ لورا خارج
الحانة.

ولما سمعت الفتاة في السيارة يهرب السائق، قالت :

« ما كان يجب عليك أن تتصرف هكذا. »

« في الحقيقة، لاحظت أن وجودي أزعجكم. هل كنت تحاولين
الوصول إلى أهدافك؟ »

وراء طعنه المعادية لاحظت لورا لحظة مرارة ورفقته بنظرة خاطئة
وقالت وقد احمرت وجنتاها :

« ماذا تقصد بهذا الكلام؟ »

« كليوياترا هل علم بدساتك. » واشغل بالها عليك. »

« هل هي من أرسلتك لانتفاذي؟ »

أكد لها دومينيك قائلاً :

« في هذه الحانة، آل تريفاين لديهم شهرة واضحة، وليس محتمل أن
يجلدت لك شيء. » لكن ربما استيقظت في الغد ناعمة على ما يمكن أن يكون
قد حصل لك. وستكون قضية سيئتين!... »

هذا المزاج البارد أزعج لورا وتكررت كلمات دومينيك لأخيه : « هل
تروي أن ترميها على المشب في طريق العودة؟ » هل جاء إلى الحانة بفعل
الواجب، ليخلص فتاة صغيرة خفاه من المأزق الذي وقعت فيه؟ »

امتلات عيناها دموعاً. يا لهذا النهار! المشاكل تنصب عليها منذ
الصباح. كان بإمكانها أن تشعر بسعادة، جالسة قرب دومينيك في هذه
الأمسيات الجميلة من أمسيات الربيع! لكن كبير آل تريفاين أصبح غريباً
بالنسبة إليها. لم يحاول قطع هذا الصمت الثقيل. وبدلاً من أن يقود بسرعة
بين القرى وعلى طرق الجبل، كان يأخذ وقته. ولذا وصل إلى حافة جبل
صخري، على الطريق المؤدية إلى سانتون، أوقف سيارته فجأة وقال في لا
مبالاة عجيبة :

« لنشاهد غيب الشمس. »

التفت نحو لورا ووضع ذراعه خلفها ومضى قائلاً :

« تبدين متعبة. »

نعم. إنها متعبة حتى الارتفاع. والدموع التي تحاول كبتها تهبط بالسقوط
في أي لحظة. سيمها أكثر من أي شيء آخر أن تحافظ على ما تبقى لديها من
عزة نفس.

قالت في جهده :

« النهار كان قاسياً. بين العنف والصراخ... والعراك...
والمشاكل... آل تريفاين لا يتعلمون بسهولة هذه الأمور النافذة!... »

هز دومينيك حاجبيه وقال :

« عن أي عنف تتكلمين؟ »

« لم ترخي عليّ في المكتب؟ كان عناك من الغضب أكثر مما كان من
الحنان ولست أنا سبب ذلك. »

ابتسم واسترخت أساور وجهه، ثم قال :

« أنت السبب. »

« كلا! »

« بل... ما كان يجب أن تناديني بالسيد الجشع. هذا اللقب الذي أطلقته
أخي عليّ، حتى ولو كنت تمزحين. »

« أفن، أطلب منك السمح، لكن... »

« لكن ماذا؟ »

« أنا... في كل حال... اليس ما فعلته طريقة غريبة لعقاب؟ »
« صحيح؟ أنت تجهلين تماماً وقأت فعل الرجال. »

اعترفت بتواضع :

« وبخصوصاً وقأت فعلك أنت. أنت تفر بسرعة غريبة من اللطف إلى
القسوة. لا أستطيع أن أتبعك. »

« اللطف... هل تعتدين أن هذا كل ما عندي لأقدمه لك؟ »
لو لم تكن شديدة الاضطراب بفعل اتصالاتها الداخلية، لتأثرت لورا
بغاية هذا السؤال. هذا الحنان الذي لم تكن تأمل به، عادت لتجده من
جديد عند دومينيك. هذا الحنان وصوت البحر مدهشاًها ولعمراًها في غبطة
وسعادة بالغة. فتركت رأسها يرتخي على كتف رفيقها في مثل وداعة

تأملها دومنيك فترة طويلة، فلم تلاحظ لها انغمست عينها فجأة،
لشغل محرك السيارة وقال :

« حان الوقت لنعود . »

وبدلاً من أن يطلع في الحال، ترك المحرك يدور، فشعرت لورا يده
تنسل تحت ثقبها ورفع وجهه نحوها، فتفتحت عينها. وبما أن الظلام قد
حل، لم تغير تعبيره. انحنى نحوها وعانقها بتعومة رائعة. وقال بلهجة
مطلقة خالية من السخرية :

« هذا الشيء أنا قادر أن أقدمه لك أيضاً . »

وحين استعد للاتعداد عنها تملتت به فقال في استغراب :

« لورا . . . »

كاد أن يجلها نحوه من جديد، لكن سيارة سريعة مرت قريباً في سرعة
كبيرة محدثة ضجة هبية دمرت ابتهاج هذه الفترة الرائعة والانسجام الذي
كان . . .

أعلن دومنيك وهو يتبع بعينه أضواء السيارة الخلفية التي كانت تتموّج
في خطورة على الطريق الضيقة :

« سيصل بيريفرين إلى باتسيون قبلنا . »

ثم أقفل السيارة وانطلق.

في الغد، كان شيئاً لم يكن. لا شيء، تغير في باتسيون. العلاقات التي
يعيشها آل تريفانين مع بعضهم انقضت لورا حتى الذهول، بيريفرين، هو
نفسه لم يغير، راح يتصرف بغفظة وتيلاء، ودومنيك، برغم اشارات
التعب على وجهه كان يقوم بأعماله كالعادة. وكليوباترا التي لم تظهر على
انتكاس مزاج أو ازعاج، كانت تستعج في أرجاء المنزل كالعادة.

قالت لورا للخادمة :

« إليهم ذئب مائة منية، وأوفياء مع انفسهم . »

وبينا كانت تتكلم، لاحظت أنها انصرفت كليوباترا جزءاً من أعضاء
عائلة آل تريفانين.

قالت ميريام :

« ألم يخاطر بك أن كل ما حدث في الأيام الأخيرة سبه عنصر
غريب ؟ »

رفعت لورا من عود أن تستوجب ما قالته الخادمة :

« عنصر غريب ؟ »

« المظف والنعموة والبرامة والطهارة بانكناها أن تستب حروباً ودماراً
عند الناس الذين لم يتعودوا عليها . »

« هل أنا مثلاً العنصر الغريب ؟ »

أمام دعشة لورا، هزّت ميريام رأسها بقوة، فسقط من رأسها دبوس
شعر وقالت :

« طبعاً، ألم تلاحظي ذلك من قبل . بالرغم من قدرة كليوباترا على
السر والاعراء، فهي تشبه آل تريفانين كثيراً ولذلك فأنها لا تفاجئهم.
إنها تعجب بيريفرين وهذا شيء طبيعي، لأن بيريفرين يشبه ترويلوس
كلياً. لكن دومنيك لم ينس والدته وأنت تقريباً مثلها . »

أمل كثير ملا قلب لورا فجأة، طالماً ما تخشى الحقيقة في تعابير الخادمة
الغريبة. فطرحت لورا عليها السؤال الذي سبق أن طرحته على دومنيك :

« كيف كانت والدته دومنيك ؟ »

ونالت الجواب نفسه :

« ناعمة ورقيقة ومتساعمة . . . مثلك، يا ابنتي. كانت تحب أيضاً
القصص الخرافية والأساطير وتعلم كثيراً. وذكاري كان يكبرها بالسن ولم
يلهمها شيئاً. وكان عزائها المطالعة والشعر وكل ذلك، بفضل دومنيك
طبعاً . . . »

« ولما توفيت تأثر كثيراً أحسن بوحشتها، اليس كذلك ؟ »

« كان عمره ثماني سنوات وكان ناضجاً أكثر من عمره. قتال كثيراً
لفقددها. ولا شك أن هو السبب الذي من أجله يشعر بالحنان تجاه
نيكولا . »

« نعم. أنت على حق. إنه يتوي أن يريه هنا . »

« طبعاً دومنيك لا يريد أن يتألم نيكولا بالحرمان نفسه. كما أنه قلق
كثيراً على طابع الولد المورثة عن والديه . »

«والله، أيضاً؟»

«ألا تعتقد أن أنة عنك ليست أكثر انزاعاً من ترويلوس؟»

«أنت لا تغيري كليوباترا، اليس كذلك؟»

كانت الخادعة تنظر في عينين شاروتين الى ما وراء النافذة وتقول :

«أنا لا أكرهها ولا أحبها، في كل حال، ليس لهذا أهمية ما دامت غير

باقية هنا مدة طويلة... هل تريد أن سقط ديبوس شعري؟»

راحت لورا تبحث عنه تحت الاثاث وتقول :

«لكن، يا ميريام، أنت تعرفين أنها... أنها سيتزوجان... من أجل

مصلحة نيكولا.»

«آه، لا، ليست هذه مصلحة نيكولا... آه شكراً، هذا ديبوس

شعري... القارن ليس لها.»

وهذا الكلام أنهت ميريام هذا الحديث وأبعدت من دون القار وتكررت

لورا حادثة وعلامات الاستهزاء بقيت مرتسمة على شفتها. صحح أن

ميريام تبدو أحياناً غاضبة...

في اليوم التالي، بعد العشاء، تصرفت بيريفرين مرة أخرى بطريقة

ردية. كان يحاول من جديد أن يستميل حب نيكولا باستعماله شتى

الطرق. غير أن الصبي رفض الاقتراب منه. وكلما أصرت بيريفرين عليه،

ازداد تعلقاً بأحضان دوميتك. أخيراً، أمر هذا الأخير أخاه أن ينتهي من

هذه المسرحية قبل بيريفرين من دون طية خاطر، معلناً فشله. لكن

الوضع تفاقم عندما راح نيكولا يصرخ عالياً :

«إني أكره عمي بيريفرين! إنه شيطان، ويقول آموس إنه سيذهب الى

الجحيم، لم يعد حسناً!»

قهقهت كليوباترا بأعلى صوته، لكن بيريفرين تصرف مثل ولد

مراهق. إذ لم يكن يسمح لنفسه أن يعامله أحد بهذه الطريقة النافذة أمام

الكبار. فرمى بفتحاته على رأس الصبي لكنه لم يصبه وراح نيكولا يبتشى.

في أحضان دوميتك صارخاً برعب.

صرخ دوميتك وهو يذاعب رأس الولد :

«كفى يا بيريفرين. أنت تتصرف كابله.»

بخس بيريفرين وخرج من الصالون كالجنون ولحقت به كليوباترا.

لأمت لورا نفسها لصمتها. البست هنا للاهتمام نيكولا. غير أنها لم

تكن تستطيع القيام بأي حركة واكتفت بالنظر الى دوميتك. ولاحتفت في

الدهاش أن يعرف كيف يعامل ابن أخيه مستعملاً اللطف والقسوة في آن

واحد. وارتاحت وهي تقول لنفسها، إن نيكولا بين أيد أكيدة.

ولما حان وقت النوم، رفض نيكولا الذهاب الى فراشه. طلب من عمه

أن يقص عليه حكاية. وفضت لورا الى أن دوميتك سيقصهم هذه القصة

ليلقن الصبي درسه الأول ويعلمه الطاعة. لذلك أسرع في التدخل

قائلة :

«لا تفقد الأمور، يا دوميتك. ما زال أمامك الوقت كله لتعلمه الطاعة

والأدب. لقد حصلت لتوك على حبه وعطفه، ولهذا يستحق بعض

الاستهزاء.»

قالت دوميتك حاجبيه في البداية ثم انتهى بالإبسام وحمل الولد على

كتفيه وتوجه به الى غرفة النوم.

وبعد قليل صعدت لورا لتأخذ مكانه وتجلسي قرب نيكولا. قرأها

محدثين على صدرها في أرض الغرفة بيتان قصراً من ورق اللعب. كان

كلها على دوميتك جداراً، تقع نيكولا على الورق ثم صرخ بفرح كلما

سقطت الأوراق. أعلن دوميتك وهو يتنفس واقعاً :

«لن أتوصل أبداً الى الانتهاء من بناء القصر. الريح الشمالية تقلص

بشدة وتدمر قصري في استمرار.»

قال نيكولا متعلباً :

«أذن عليك الآن أن تقص علي حكاية.»

أجاب وهو يريد أن يكتم لورا التي دخلت لتوها :

«لحظة.»

أصر الصبي وهو يتنفض بغارغ صبر :

«حكاية!»

أخيراً حله دوميتك وأجلسه على الأريكة وجلس قربها وقال :

«إني أترح أن تقص علينا مومو حكاية صغيرة.»

جلست لورا مقابلتها وبدأت تقول :

« كان ما كان ، في قديم الزمان ... »

راح دومينيك يتأملها في حنان . جلست كعادتها ، مكتفة اليدين مثل تلميذة مدرسة . هكذا جلست على الكرسي أمام الدفاعة . وكان دومينيك مسحوراً بخصلات شعرها الناعمة وعينيهما الواسعتين . ولم يكن يعير انتباهاً شديداً لمحتوى القصة . كانت القصة تروي سيرة حياة أمير مسكين ، قبيح لم يكن له حظ مع النساء ومع الحب . زوجته الأولى هربت ليلة عرسها وكذلك زوجته الثانية . أما الثالثة التي هي الآن في الأستين ، فتحت بأن تنقله من القدر السيء الذي كان مسجوناً بداخله .

ولما وصلت إلى نهاية القصة ، شعرت لورا بانزعاج بسيط وأهت القصة بسرعة واهجر وجهها . لكن يتكولاً كان ولعاً وسألها محتجاً :

« لم تقولي أن زوجة الثالثة قبله رغم بشاعته ، يا مومو . هذا أهم شيء »

في القصة ! لو لم تقبله لما تحلص من قدره السيء . »

تلعثمت لورا وتباحثت نظرات دومينيك وقالت :

« نعم ... نعم ... »

ومن جهة ، تسأل دومينيك إذا لم تكن هذه الفتاة الناعمة قد أرادت من قصد أن تتحاشى التفاصيل للثأر لتشير إلى كدماته فقال :

« لم تكن مومو على حق في اختصار نهاية القصة . كانت تخشى ألا تحرج شعوري . »

شعوري . »

قال يتكولاً :

« بسبب آثار الكدمة في وجهك ؟ »

« في البداية ، كنت تعذبني آسائاً قبيحاً . اليس كذلك ، يا يتكولاً ؟ »

« لكن لما عرفت أنك قائل مثل القرضان ، اختلف الأمر كلياً . أنت حصاني ... لا تشي ذلك . »

بدأ هذا الكلام يحدث عند الطفل بعد الملل ، فراح يتسل بلعبة صغيرة

حصل عليها كهدية عيد الفصح . فقال دومينيك بغارغ الصبر :

« أه ، يا لورا ! »

فحاولت الانسجام وقالت معترفة :

« لقد تصرفت مرة أخرى مثل فتاة تافهة . لا أعرف لماذا وجدت علاقة بين هذه القصة والكدمة في وجهك . في كل حال هذه الكدمة تعطيك جاذبية القرضان . »

قهقهة دومينيك وقال :

« أنت فتاة رائعة ! »

« رائعة ؟ »

« هل هذا التصريح يدعشك ؟ إلي أسأله ما إذا كنت مخطئة في بعض وجهات النظر . »

كان يتكلم بموضوع لم تفهم حقيقته ، فازاحت نظرها لتأمل المنظر من خارج النافذة . إن كومة الأنقاض التي تضيئها شمس الغيب . كانت ذات جمال غير اعتيادي . فقالت :

« انظروا هذه الأنقاض المربعة تبدو وكأنها أبراج قصر مسكون ! »

نظر صوب الأنقاض وهو يشعر باستغراب . لقد غيّرت الموضوع بلباقة

ودكاء . انتبه بانفعال غريب ، فأمسك بمعصم لورا وأرغمها إلى النظر إليه

وقال :

« أريدك أن تبقي ! السي ما قلته البارحة . »

راحت تتأمله ويقول :

« كنت غاصية ، سأبلى ، طبعاً . ما دامت كليوباترا في حاجة إلي ، »

« شكراً . لقد وصلت ابنة عمك إلى المحلة قراير هائي ، هل ما أظن . »

« هل نجحتي في الاتفاق ؟ »

« اعتقد ذلك . »

اختفت لورا وأمسأها غير قادرة أن تتحمل نظرة دومينيك الزرقاء ، وأطلقت زفرة طويلة . غاب السحر عن المنظر . ومن النافذة رأته زويبي

الكليب المسن ، يجر قدميه في ساحة المتزل :

فأعلن دومينيك قائلاً :

« هذا الكلب المسكين لن يعيش طويلاً . »

فارتعشت لورا فقال دومينيك باستغراب وحنان :

« أنت فتاة حساسة ، حساسة جداً . الحياة والناس سيخرجون شعورك

إذا لم تخشوشني .

أجاب وقد تأثرت بحدسه واستبصاره :

« مثلك ؟ »

« أنا، حتى أن أفعل عكس ذلك تماماً . في كل حال، مساء أمس، عندما عانقتك، رقة فعلك دمرت كل دفاعي . »
لأتمه قائلة :

« لا يجب أن تتكلم عن هذا . لا أعرف ما الذي جرى لي . »

« صحيح ؟ ألم أكن أذن بديلاً عن بيرغرين ؟ »

قال هذا الكلام في لهجة متروعة حتى أنها لم تلاحظ أي تخوف سينتابه وهو ينتظر جوابها .

لكنها تذكرت انذارات كليوباترا، واعتقدت أنه يعطيها الفرصة لتعتذر عن تصرفها، فقالت :

« ربما . من الأفضل أن اهتم الآن بنيكولا . حال الوقت كي أضعه في قراشه لينام . »

وفي لحظة البرق، تغيرت ملامح دومينيك وتماير وجهه كلياً . نهض ونظر إليها لحظة سريعة من فوق . استحال الرجل القائم الغريب، المتكور خلف درعه . مدت لورا يداً مترددة لمحاولة إيقافه، لكنه استدار في حدة وغادر الغرفة .

هذا الأسبوع، أسبوع العطلة الذي انتظرته لورا في أمل وحماسة لم يختلف كثيراً عن بقية الأسابيع . فيبرغرين يمضي معظم أوقاته خارج المنزل، يعمل في ممتلكاته من وقت إلى آخر، لكنه كان يفضل أن يلهو في الحانات حيث كانت ترافقه كليوباترا أحياناً . وفي غالب الأحيان كانت تبقى في بانسيون، متكئة على نفسها، عائدة في صورة مدهشة وحالة وليس هذا من عادتها . ولم تكن تفرح بتناكدة ابنة خالها . الانسالة الوحيدة التي ظلت على طبيعتها هي الخادمة المعجوز، ميريام . لا شك أن خبرها في الحياة والسنوات الطويلة جعلت الحوادث لا تخترقها .

واكتفت لورا برفقة نيكولا . لا أحد فكر في أن يقترح عليها القيام بنزهة حول المدينة وجوارها . وزيادة بالشؤم، كان الطقس على أسوأ ما يكون .

فكلما خاطرت بالخروج في نزهة قصيرة مع الصبي، كان المطر يطاردها . وبعد تجارب تعبئة من هذا النوع، انتهى الأمر بنيكولا أن قرر الرفض وعدم الخروج .

وذات صباح، التقت لورا صدقة بدومنيك في ساحة المنزل، وتسلحت بالشجاعة لتقول له كل ما يدور في أعماق تفكيرها :

« اعتقدت أن إغلاق الملقع خلال العطلة سيعطيك المجال للتمتع بأسبوع إجازة ؟ »

كان واقفاً أمامها، طويلاً، قوياً وممشوقاً . شعرت لورا بانسحاق لطيف أمام القوة التي تصدر عنه . فقال شارحاً ومبتسماً :

« هذه العطلة هي للعمال أكثر مما هي لأصحاب العمل . يا لورا المسكينة، هل تحلمين بالذهاب إلى التسوق في المدينة، أو بالقيام برحلة في الهواء الطلق ؟ »

« أفضل اكتشاف المنطقة . أنا هنا منذ شهرين ولم أخرج تقريباً من هذا المنزل . »

أجاب بلهجة ساخرة :

« بإمكان بيرغرين أن يتطوع لإخراجك ! العمل لا يمنع تحقيق ذلك ! »

« إنه يفضل رفقة كليوباترا . »

« أه ! وهذا ما يزجرك ! ابنة عمك تناسبه أكثر منك . لو كنت مكانك لاستسلمت لهذا القدر . »

وللحال ابتعد عن لورا . فوجئت الفتاة وظلت تنظر إليه حتى توارى داخل المستودع . هل يعتقد أنها تغار من كليوباترا ؟ وهو، هل هو مترجع من اهتمام كليوباترا بأخيه ؟

صرخت تقول :

« أننا في حالة الوصول إلى الجنون، هنا ! »

سأها دومنيك وهو خارج من المستودع ويده بعض الأدوات :

« كيف نحن ؟ صحيح يا لورا عليك أن تقلعي عن عادة التكلم بصوت مرتفع . ستفضحين نفسك يوماً من الأيام ! »

وعلى أثر هذا الكلام، اختفى وهو يترنم بأغنية معروفة.
عادت لورا الى المنزل ودأبت الكلب وويل في طريقها الى غرفتها.
صعدت السلم ولا حظت أن باب غرفة كليوباترا مفتوح. فحاطرت
بالدخول. كانت المرأة تخرج كل ملابسها من الخزانة وترميها أرضاً
فسألتها:

« ماذا تفعلين ؟ »

« أحضر لك عملاً، تقصير ملابسى، تنظيف... اغراضى أصبحت
خرقاً... »

فقامت لورا في الحال بتحويل الملابس إلى كدس مرتبة.

لامتها لورا في سهولة :

« كان بإمكانك أن تعطيني ملابسك الواحد بعد الأخرى بدلاً من أن
تدعيها تتكدس هكذا. »

« من أين تريدني أن أبدأ ؟ »

أجابتها كليوباترا في وقاحة :

« إنى بحاجة إليها جميعها، صاعداً بانسيون عما قريب. »

« متى ؟ »

« بعد أسبوع تقريباً، هذا يتعلق بأمور كثيرة. »

فكرت لورا في حزن وقنوط، لا شك أن الأمر يتعلق بدومنيك
« أعلميني بموعد ذهابك متى تحدد. أريد اعلام صاحبة المنزل حيث كنت
أفطن أن تخرج في غرفة صغيرة وإنى بحاجة إلى بضعة أيام لاندازها
بالأمر. »

« آه، أنت أيضاً ستغادرين ؟ »

« بالطبع. هل ستحاجين إلى لاهم نيكولا خلال رحيلك. »

« كلا. سيقى هنا. »

جلست لورا على السرير وقد خارت قواها فجأة. عرفت ان كليوباترا
ودومنيك قد عقدا مساء أمس اجتماعاً سرى لمناقشة الوضع ولا شك أنها
توصلا الى الاتفاق.

قالت كليوباترا :

« قال لي دومنيك إنك ستبقين هنا للاهتمام نيكولا. »

« نعم، بقدر ما يكون وجودي ضرورياً. »

« إذن، اتفقي بهذا الأمر مع دومنيك. »

تنفست لورا الصعداء وقالت :

« كليوباترا، هل حققت امتيالك. هل أنت مستقبلي نيكولا ؟ »

« نادراً ما تأخذ الأمور الطريق الذي تمنى أن تسلكه، لكني أشعر

برضى. نعم، لم يعد لمستقبل نيكولا أي مشكلة. »

سألت لورا وحلقها مضطربة، متأكدة من أن جواب كليوباترا سيبدد كل
الآوهام ويعلم نهاية أحلامها.

« وماذا عن مستقبلك ؟ »

ظلت كليوباترا شاردة الذهن وقالت في ابتسامة ناعسة :

« كل حياتي، تعودت أن أترك قدرتي للصدفة، وهذا أفضل. »

« إذن، لن تعودى إلى بانسيون ؟ »

« طبعاً سأعود، يا ابنة خالي الساذجة. انى أعرف شاماً ما بداخل

أفكارك. لا، لا، لا تفرحي بسرعة ! »

كان ذلك شديد الوضوح. ستتغيب كليوباترا الوقت اللازم كي تهجى

نفسها نهائياً للعيش هنا. عشت على شفتيها وخرجت من الغرفة حاملة

كتلة الملابس المطلوب اصلاحها.

« ألهم الآن... لكن نيكولا سيكون في حاجة إليك على الأقل في غيبابا. »

« دوميتك... »

قاطعها بحفاف:

« دعي العذاب في أمور لا تتعلق بك. أنا أتكلم عليك في الاهتمام بالنصي والسهر على راحته وصحته وحاجاته إلى أن تتخذ كليبواترا الإجراءات النهائية. »

ظهر بيرغرين فجأة وقال:

« كم أنت حزينة. وللأسف لم يسلك أحد في هذه الأيام الأخيرة إلا خطاً مسطحاً لك لزيرة المطلقة. ما رأيك؟ »

لم تكن لورا تسمى قطاه النهار برفقة بيرغرين. فمعتا حادثة الحانة بدأت تتحاشى تصرفه الغريب. همست تقول:

« لا تطلق علي ولا سب لتعذب نفسك من أجل. أفضل، في جميع الأحوال، رؤية المقلع قبل الرحيل. وهذه ليست شيئاً بالنسبة إليك. »

« ولم لا؟ بإمكاننا اصطحاب نيكولا معنا، ربما يصل إلى الجهاد فرصة كي استعمل حبه من جديد. »

فيلت لورا عرضه في حلس، شاعرة بالأمان لوجود نيكولا. وفي صباح الغد، قال بيرغرين لكليبواترا وهو في طريقه إلى المقلع:

« تعالي معنا، يا عزيزتي. »

كانت أن تقول نعم عندما أضاف:

« فكري في الأمر ملياً. الوبم ثلاثة ليس رفهاً جيداً. وربما مرض ابنك مرة أخرى. »

قالت في غضب:

« إذن، لماذا تدعوني لمراقبتك؟ »

في هذا الوقت بالذات لم يعد للورا رغبة في التعاقب. إضافة إلى ذلك بدأ نيكولا بسبب بعض الصعوبات. فهو يريد أن يتنزه مع عمه دوميتك وليس مع بيرغرين.

قالت لكليبواترا باحتقار:

١٠- الشروق الوردى

شارف أسبوع العطلة على نهايته وما زالت لورا خائبة الأمل. لن تحمل معها حتى فكري نزعاً جميلة عندما تغادر هذا المكان وهذه المنطقة.

سألت دوميتك:

« ألا يمكنك... ما دعت سأعادر حتماً قريب... أن تصطحبني على الأقل إلى المقلع؟ »

« تغادرين؟ اعتقدت أنك قبلت البقاء هنا! »

« كنت سأبقى بقدر ما تحتاج كليبواترا إليّ. لكن ما دامت سترحل... »

« هي التي قالت لك هذا الكلام؟ »

« نعم. وقالت لي أيضاً أنها ستعود. »

« لا أرى ما ما يمكنك فعله في القلعة »

أجاب بيريفرين :

« وأنا كذلك. لكني سألتهم الفرصة لاستمالة عطف نيكولا، من جديد. »

جلست لورا مترجعة في السبابة قرب الصبي الذي كان ينجح ويمرض، ثم اقترحت على كليوباترا في خوف قائلة :

« تعالي، يا كليوباترا. »

« آه، لا أحيق أن قال بيريفرين أن الرقم ثلاثة ليس رقماً جيداً. فضلاً عن أني سأخسرم فرصة حياتك لأعجل في إتمام أموري. »

تبددت غماوف لورا لدى وصولها إلى القلعة. فقد سحرها المنظر وخاصة الآلات الخادمة التي تشبه الهياكل وكذلك المبال الصاعدة. أعلنت قائلة :

« كأنها ملكة الموت، كأنه عالم ضائع. »

انفجر بيريفرين ضاحكاً وقال :

« يا ليلدة الخيلة ! في الأيام العادية ليس للمقطع هذا المنظر. ولدينا هنا كل وسائل الراحة. اتبعيني، دعيني أريك كل ما ترعين به. »

تركوا نيكولا يلعب ودخلا إلى منزل صبي من الخشب.

« هذا جناح الراحة والغطية. لا يتصهم شيء. هل تحبين قضاء ليلة هنا ؟ خلال أيام العطلة، تستخدم هذه الغرف للقاءات سرية. »

أراد بيريفرين من دون شك أن يعاكسها، ففرت أن تجهل ما يلصق إليه وقالت بهدوء تام :

« أعتقد أن الوقت قد حان للعودة. الشباب بدأ يتكاثف. »

وبدت هل شغيت بيريفرين ابتسامة سبلة. فأضافت شاهرة بمحبة في العودة إلى باتسيون :

« سأني نيكولا. لا شك أنه يشعر بالبرد. »

« لا، سأذهب أنا مكانك. وبينما تنتظرتني، يا لورا الجميلة، سأقبل عليك الباب خوفاً من أن تقعي في حفر المقلع العديدة. سأعود إليك بسرعة. »

ولما أفاق لورا من دعشها، كان قد أقفل الباب وواء بالفتح. أسرع إلى الثالثة وشاهنته يتوجه نحو الساحة. لذا يلعب معها هذا الدور التافه ؟ لم تكن عاتقة تماماً، لكن الضباب تكاثرت بسرعة هائلة. وأن وقت العودة في الحال.

عاد بيريفرين حاملاً نيكولا الذي جنّ رعباً والذي ارتقى في احضان لورا وراح يبكى. فسألته :

« لماذا أغلقت الباب بالفتح من جديد ؟ كفى مزاحاً. لنعد الآن. »

أسند بيريفرين ظهره على الباب وراح يحدّق فيها بقسوة وقال :

« ليس هذا مزاحاً. ينبغي هذا. »

« قلت واقفة أن تدع الخوف يمتلئها. »

« ما بك يا بيريفرين، علينا أن نسرع ! إذا تأخرنا فسيكون سلوك الطريق خطراً في هذا الضباب الكثيف. »

« صحيح. الخطر بمالتي. هذا الضباب غير المتغير يندم خططاني. »

في هدوء تام، مدت لورا نيكولا على أحد الأسرة وخطته ثم التفتت إلى الرجل، مكتفة اللراخين مثل حمزة مستعدة لحماية طفل عهد به إليها.

« لا يمكنك أن تأسرتنا هنا ! »

« لكن هذا ما كنت أتوي فعله، حتى ولو لم يكن هناك ضباب. »

« لكن لماذا... لماذا ؟ ماذا تأمل بذلك. هل تريد أن تجعل كليوباترا تغار... لا، لن نتوصل إلى ما تريد. »

« هل تعتدين ذلك ؟ لأية عمتك كل الأسباب كي تغار منك. »

« ما نقوله أشياء تافهة وحقاء. كفى تسلية يا بيريفرين، لنعد الآن. »

« ليس وأردأ. يا عزيزي. »

فجأة أصبح تعبير وجهه جديداً واضحاً فاقترب منها ودفعها على أحد الأسرة وقال :

« ألم أقل لأخي الكبير، السيد الجشع، أنه سيئد على ما فعله بي، تلك الليلة عندما اصططحتك إلى الحانة ؟ فانتظرت بصبر الوقت المناسب للانتقام منه. فكرت أين احتفي مع نيكولا بضعة أيام، لكنك برهنت الآن عن امكانية أفضل. لن يفلت بال دوميتيك الليلة واحدة، لكن أي فاني

سيكون عندما تكون عفة فتاة في خطر. . .

ابتعدت لورا عن طرف السيرير. لم يكن بيرغرين مزح وبدت متأكدة تماماً من ذلك. غير أنها لم تستسلم للخوف وقالت باستنار بارد :

« نحن الآن في خضم المسألة، وكل ذلك لأنك تريد الانتقام ! »
قال سائراً :

« من الآن حتى نهار غد ستظلين هذه الهيئة المتعالية، يا ابني. »
قالت وهي تنظر إليه بملء عينيه :

« إذن، أنت حقاً تنوي اغتصابي ؟ »

لو سمعتها لعمه قلوا لانتهاجها الذعر. وأمام هذه الفكرة احترت وجثا الثلاثة غصاً عنها.

« أه، انت محمرين برغم ذلك ! سبلدهش السيد الجشع من أسلوب تعجته البيضاء ! »

راحت تويحه وتقول :

« لا تائه بهذا اللب ! أنت تتصرف مثل مراقب يقار من أعبه الكبير.

لقد نجح دومنيك في استمالة عطف نيكولا ووجه. وما عليك إلا قبول الامر الواقع والامسلاام ! في كل حال لن يقلق على الولد لأنني موجودة معه. »

جلس بيرغرين على السرير قرب لورا وراح يرمقها ينظر إلى الجاحدة، ثم قال :

« إذن لم تفهمي شيئاً. سيتلق دومنيك عليك أكثر من قلقه على نيكولا ! أنا عطففت الشخصين العزيزين على قلبه، أكثر من أي شيء في العالم. اليس هذا رائعاً ؟ في ليلة واحدة سيدفع ثمن كل الإهانات التي كبتني إياها. »

لم تتحرك. واضطرت إلى ضبط نفسها بينما كان بيرغرين يتكلم ثم

اطلقت زفرة مرتفعة من شفتيها فقال مستغرباً :

« ألم تشعري حقاً بأي شيء الست امرأة كما يجب تتمكن من كشف الحب الذي يخفيه وراء تصرفاته كروب عائلة قيور ؟ »

أجابته في توتر حتى تسبب الوضع المتأزم الذي وجدت فيه :

« انه يعلمني كتابة صغيرة. كنت أعتقد العكس، انه . . . كل من عواظني تجاهه. ولقد حذرتي . . . »

« حذرك غشدي، أنا أكيد من ذلك. لقد أفلسته كليوباترا أنك مقربة به. »

انصبت لورا متعبة ومدعووة. أخيراً بدأت الأمور تتجلى وتتوضح ! الدفاع الذي حدثها عنه ! يريق العواطف الذي اعثرته لطفاً فحسب !

كانت استطاعت معرفة كل شيء منذ البداية لو لم تقم كليوباترا بتضليلها.

خيانة ابنة عمها تؤلمها.

وكان بيرغرين قارحاً يجرى في خاطرها فقال :

« كلا، يا عزيزي. ليست كليوباترا عبيلة، هذه المرة. لا شك أنها كانت تشعر برغبة في أن تستقم هي أيضاً من دومنيك لأنه رفض الزواج منها. لكنها لا شك تفكر بمشاريع أخرى. لو كانت ذكية بلعك بوقع الليلة

على صقفة رابضة فيدفع لها مبلغاً معيناً. وأنا ربما تورث نفسي لأن أعدها معي إلى اللصيح لتعقد زواجنا. هل أنت راضية الآن ؟ »

قالت في عطف مفاجيء :

« علينا أن نعود ! والأ فسياتي دومنيك بنفسه لاخلنا. ستقول له كليوباترا أين نحن الآن. »

اطلق بيرغرين ضحكة واسعة وقال :

« ألا تشاهدني حالة الطقس ؟ يكون مجنوناً من يجرى على الخروج. دومنيك محكوم عليه أن يترك حبيته يرحمني. »

نظرت لورا من النافذة واكتشفت وراء سبيكاً أبيض ملتصقاً بالزجاج فطلعت وهي ترقق لتذهب قرب نيكولا :

« حسناً. ستقضي الليلة هناك إذن. »

أعلن بيرغرين في فرح :

« ولن نمررت جوعاً. فقد اصطحبت معي سلة مليئة بالفاكولات وهي داخل صندوق سيارتي. »

هذا التفصيل أزعج لورا كثيراً. فافترت من بيرغرين وصلته وقالت :

« بأمكنة أنك أن تسخر مني ومن قصصي حول القراصنة، لكنك أنت وانتقامك الزعينة، دلالة على أنك ما تزال تهامي من أمراض المراهقة ! »
 وضع بيرغرين يده على خده وقال في هدوء وهيب :
 « استدعين على ما فعلته الآن. كذبي الليل كله حتى أوقعتك الثمن. »
 في بانسيون بدا النهار طويلاً ومعتلاً. تصرقات بيرغرين الغريبة انقضت الشكوك في نفس كليوباترا. لكنها غلّت رافضة أن تدخل في اللعبة. سيكون بيرغرين فرحاً إذا توصل لأن يوصلها تغار منه. كانت تعرف أنه قادر على اقراء لورا فقط من أجل أن يخلقها مع دوميتك.
 عاد دوميتك إلى المنزل في الساعة الخامسة والنصف. فطّاب حاجيه عندما عرف أن التزويج لم يعوضوا يده.
 « أميل إلا يتلخروا في العوفة. فالصباغ بدأ يلف الجور. »
 أجابه كليوباترا :
 « لا شك أن بيرغرين يلوذ بسيارته بيده. على غير عادته. »
 بما أنها لم تتعود على العيش في القرى والأماكن الصغيرة، فلما تجهل مخاطر الطرقات التي لا حياء فيها، خاصة على حافة الجبل الصخري. ومع حروور الوقت بدأ القلق يدخل إلى قلبها. ولم تكن تحشى وقوع حادث مثل دوميتك. كانت متأكدة الآن أن بيرغرين قرر الانتقام، ليس فقط من أخيه، بل من منها أيضاً هي التي قررت الزواج منه.
 في السابعة، تحل دوميتك عن محارسة مهماته وراح يمشي ذهاباً وإياباً حتى وصل إلى الباب الخارجي وأخيراً اقترحت كليوباترا عليه :
 « لماذا لا تتصل هاتفياً بالقلع ؟ »
 « حاولت من دون جدوى »
 « انهم في طريق العوفة، إذن »
 « كلا. وأنت تعرفين ذلك جيداً. »
 « لو كانوا ما يزالون هناك لردّ أحدهم على الهاتف. نيكولا يجب الرد على الهاتف. »
 « ليس بالضرورة. الهاتف يقع في الكتب وفي المقلع غرف مريحة أكثر لغشاء الليل. »

« أنا أكيدة أن بيرغرين كان قد اتصل بنا لو أن الطبيب هو الملتصق. »
 « هل تعتقدين ذلك ؟ »
 « إن صحت ثقيل يمينها. كان دوميتك يمشي طولاً وعرضاً في أنحاء الصالون. فجاءت توكف أمام كليوباترا وقال :
 « ألا تعتقدين أن الوقت قد حان للكلام ؟ »
 همت لترجع بعض اللحظات :
 « لا أقهم. »
 قال دوميتك في برود :
 « أنت تغيبين وقتك. معها حصل في هذه الليلة. قلن تتغير حقيقة مشاعري. »
 شعرت كليوباترا بألم حاد لاكتشاف هذا الحب الكامل الذي لن تعرف مثله أبداً.
 « طبعاً ستأخذ بقايا بيرغرين كما كنت مستعداً أن تأخذ بقايا ترويلوس ! »
 صفعها دوميتك على وجهها وقال :
 « هذه هي اللغة الوحيدة التي تفهمها. والآن، اسمعي. مساء أمس وصلنا إلى اتفاق في ما بيننا. ستكونين نيكولا التي وسكوني في جهدي لقاء مبلغ من المال. أنا مستعد أيضاً لأن أعطي بيرغرين حصته من هذه المؤسسة. لكن ابتداء من نهار غد، ستفادون منزلي، هل فهمت ؟ »
 ماذا هناك، يا ميريام. »
 ارتعبت كليوباترا من عصف دوميتك وزحبت بقدم ميريام. التي قالت من دون مقلدة :
 « هدئي أخصابك، يا عزيزي، لن يعوزنا هذا المساء. »
 قضى دوميتك ليلة مريحة ولم تتركه ميريام لحظة واحدة. بل ظلاً ساكتين ولم يفكروا بكليوباترا التي صعدت إلى غرفتها. ذلك أنها لم تعد تنتمي إلى عالمها. وفي الخامسة صباحاً قال دوميتك معلنًا :
 « الصباغ يلف، وبمكنك الذهاب الآن. »
 وكانت ميريام تريد أن تقترح عليه مرافقته إلى المقلع،

فقلت :

« سأنزل أمر الصبي لأنه سيكون لديك أشياء أخرى تفعلها. »
أجابني بحتان :

« يا عزيزي ميريام ، لا شيء ، فاجبتك مطلقاً . لا شك أنك تلوميني بسبب جهل وعذلي ! »

« نعم ، أحياناً أؤلمك ، لكن يجب دائماً أن يتحمل المرء بالثقة . »
لما وصلا إلى القلعة ، أطلق دومينيك يوق سيارته فظهر بيريفرين أمام الباب في الحال قتلاً :

« وصلت متأخراً ! »

صرخ دومينيك الذي غادر سيارته على الفور :

« أين هما ؟ »

أشار بيريفرين برأسه إلى داخل البيت وأجاب :

« هنا ، بنامان . لا توقف تعجبك ، علينا أن تستريح بعد هذه الليلة المضطربة . إنها... »

امسك دومينيك بيالة قبض أخيه بحف جملة يتوقف عن الكلام وقال له :

« من زمان وأنت تحاول إيجاد مبرر للحراك . ستحصل عليه الآن . »

قال بيريفرين في سخرية :

« التاريخ يمازح نفسه ، المكان نفسه والوضع نفسه... »

« نعم ، لكن هذه المرة ستشارك من دون غش وخداع ، دافع عن نفسك ، يا بيريفرين ! »

دفع دومينيك أخاه إلى الورااء ولجوج ، إلا أن الحوف في نظره السوداء فأعلن قتلاً :

« كلا ، لن أتعارك معك . »

اختفت كل وقاحة ،

« هل تشعر بضيق حيال اللحظة الحاسمة ؟ »

« كلا ، لكن تعجبك البهامة ربحت معركة . »

في الوقت نفسه كان دومينيك قد صغفه بعقب ورماء أرضاً .
ثم قال لأنه لم يستوعب في الحال معنى كلام أخيه :

« قل ما قلته مرة ثانية . »

« كنت أقول أنه سبق أن حسرت . أسألك أنت بنفسك ، هذا هي ! »

التفت دومينيك ورأى لورا واقفة على عتبة البيت مكحلة بهالة الفجر الزوذية . فقد استيقظت في لحظاتها المزهق وشعرها المشعث وعينها الكبيرتين القليلتين تعساء ، فكانت تشبه فتاة صغيرة .

« لورا ! »

بدت وقد استيقظت تماماً لدى سماع صوته وعاد اللون يملأ وجهها من جديد .

فأعلنت بحدوه :

« كل شيء على ما يرام ، يا دومينيك . لا تتأركا . »

صرخ بيريفرين الذي ما يزال أرضاً :

« هل رأيت ! تعجبك هرفت كيف تدافع عن نفسك . لم تطلق التحية ولا النجدة... بل انهرت على يدروس الأخلاق والوعظ وكانت بذلك قادرة أن تجعل أبي أسأل بغير نوايا السيئة ؟ ماذا تتظن من اللازماء بين ذراعيه يا أخته مسكت . ألم يأت لتجندك ؟ »

لم تكن لورا تنظر إلا إلى دومينيك فالتأبها الغثيان وأخفت وجهها بين يديها .

وقف بيريفرين وريث على كتف أخيه وقال :

« لا تكمل الحراك . لقد أوضحت لها الأمور ولا شك أن كلوبياترا فعلت الشيء نفسه معك ، لكنها لم تسع بعد من فمك أنك تحبها... »

حسناً ، سأتركها ، فانا في حاجة لشخير الجوز . إلى اللقاء . »

ابتعد بسرعة وعكر هذوه الصباح بطسجيج محرك سيارته . إنها الإشارات الأخيرة لأنتقام بيريفرين .

عاد الصمت من جديد إلى القلعة . دخلت ميريام إلى المني في هدوء غريب . أما لورا ، فقلقت من دون حراك . اقترب دومينيك منها وأخذها من

خسرها وقال في تردد :

«لورا...»

ولمعت عينها تحو، وقالت :

«هل قلقت كثيراً هذه الليلة.»

«نعم، لأنك عزيزة علي.»

«اذن، هل صحيح أن...»

«التي احبك؟ نعم، صحيح. هل أنت صعبة الانفتاح؟»

«آه، لا! يؤمن المرء دائماً بما يمتنى من كل قلبه.»

اسمها دومنيك اليه وقال :

«كم كنا عرياناً، يا حبيبي!»

«أنا لذي اهداري، لأنه لم يسبق أن كان عندي تجربة في الحب. أما

انت، يا دومنيك تريفاين، سيد ماتسون، فكانت يجب عليك ان تعرف

ذلك.»

«في الواقع، على السيد الخشع ان ينال كل ما يرغب به من دون

الاعتصام بالغير، اليس كذلك؟»

«في البداية فقط، كنت احببك سيداً شجاعاً.»

«كلا، في البداية، كنت تعتبريني الشيطان بعينه!»

وضعت اصبعين على شفتي دومنيك وقالت :

«هل ما زلت تعاملني كفتاة صغيرة؟»

غموض غير متغير ظهر على وجه دومنيك المتعب وقال :

«كلا، يا حبيبي، لكن دفاعي لا يسطط في لحظة واحدة...» مستيقن

مطولاً الفتاة الحنونة التي احببتها دائماً.»

ارتجت بين ذراعيه ومنحته قلبها. ولما ابعدوا عنه، كانت الشمس تشرق

من وراء المقلع بجاعة المركز الصناعي في منظر جميل.

قال دومنيك :

«انظري!»

لكن لورا لم تقدر ان تزيح نظرها عن جنبه الزرقاوين وكعادتها فكرت

بصوت مرتفع، قاتلة آخر ما ورد في اسطورة حصان القارون :

«عندما لمح القارون الفتاة العذراء، اقترب منها، فلدغته
بثلفها...»